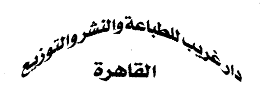
أسرار المطبخ السياسى

رد الاعتبار إلى ماكياڤيللى

د. نبيل راغب



دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت: ٣٥٤٢٠٧٩
فاكس : ٣٥٥٣٤٤٢

المكتبة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩١٧٩٥٩

فصول الدراسة

الصفحة

مقدمة

ولد المفكر السياسى ورجل الدولة نيكولو ماكيافيللى فى الثالث من مايو عام ١٤٦٩م فى مدينة فلورنسا بإيطاليا، لكنها كانت إمارة مستقلة بذاتها، شأنها فى ذلك شأن معظم المدن الإيطالية قبل الوحدة الإيطالية. وكان عصره زاخراً بالاضطرابات والقلاقل التى بلغت ذروتها بالغزو الفرنسى عام ١٤٩٣م، وهروب أسرة ميديتشى الحاكمة إلى خارج فلورنسا. وفى عام ١٤٩٨م حصل على وظيفة سكرتير لجنة العشرة الحاكمة، وهى الوظيفة التى ظل يشغلها حتى سقوط الجمهورية فى عام ١٥١٢م، إذ كان النظام الجمهورى هو النظام السياسى الأمثل فى نظر ماكيافيللى.

وتعددت المناصب السياسية الحساسة والمهام الدبلوماسية التى نهض بها ماكيافيللى، بما فيها عمله مع سيزار بورجيا الذى قاد حملتين عسكريتين استطاع بهما أن يفرض سلطانه على إمارات روماجنا، وبيروجيا، وسيينا، وبايومبينو، وأوربينو، بل بلغ به الأمر إلى تهديد فلورنسا نفسها. وكان حماس ماكيافيللى له نتيجة لتخطيطه لإعادة بناء مملكة قوية ومتحدة فى وسط إيطاليا تحت رئاسته. وكانت نفس ماكيافيللى تهفو دائما إلى إقامة الوحدة الإيطالية. وقد سجل خبرته السياسية العريضة والعميقة فى هذا الشأن فى اثنين وخمسين خطابا، خاصة مهمته الدبلوماسية إلى بلاط الإمبراطور ماكسيمليان، وأربع مهام أخرى إلى فرنسا. وكانت هذه الخطابات زاخرة بالتحليلات السياسية الواعية التى لمست كل محاور الصراع والاحتكاك بين الممالك والإمارات فى عصره.

وعند عودة آل ميديتشى لتولى حكم فلورنسا مرة أخرى، تم القبض على ماكيافيللى بتهمة الخيانة. لكن عفواً صدر عنه، واقتصر الحكم على نفيه إلى بلدته القريبة من فلورنسا، حيث اعتزل العمل السياسى وتفرغ للدراسات السياسية والكتابات المسرحية والروائية ابتداء من عام ١٥١٣م. واستمرت مرحلة الدراسة والإبداع فى حياته حتى عام ١٥١٩م حين طلب منه البابا ليو العاشر أن يكتب تقريراً وافياً، أو ما يشبه دراسة الجدوى، عن إصلاح الأحوال السياسية فى إمارة فلورنسا. وبذلك انتقل إبداعه من المرحلة الشخصية الذاتية إلى المرحلة الرسمية العامة، وفى الفترة ما بين عامى ١٥٢١م و١٥٢٥م عاد إلى العمل بالسلك الدبلوماسى كمؤرخ ومسجل لحوليات هذه الفترة.

وعند هزيمة الفرنسيين فى معركة بافيا عام ١٥٢٥م، وجدت إيطاليا نفسها بلا حول ولا قوة فى مواجهة قوات الإمبراطور الإسبانى شارل الخامس القادم لضم إيطاليا إلى امبراطوريته. وبذل ماكيافيللى أقصى ما فى وسعه لكى يجنب فلورنسا سقوطها تحت أقدام الغازى وهو فى طريقه إلى روما. وفى مايو ١٥٢٧م استطاع الفلورنسيون أن يطردوا آل ميديتشى مرة أخرى ليعلنوا الجمهورية، لكن صحة ماكيافيللى كانت قد انهارت بعد المحن المتتابعة التى مر بها، ولم يعد قادراً على المساهمة بفكره وجهده فى النظام الجمهورى الجديد، ومات فى ٢٢ يونيو من نفس العام.

لكن أثر ماكيافيللى لم ينته بموته، إذ ترك بصماته واضحة على تاريخ الفكر السياسى منذ أوائل القرن السادس عشر حتى الآن. فقد أثار جدلا بل هجوما عنيفاً على آرائه وأفكاره، من المعارضين والخصوم والأعداء الذين سعوا لتشويه صورته وسمعته بكل إمكاناتهم، فى حين تخلى عنه أصدقاؤه المؤمنون به من أمثال المؤرخين الكبيرين كويجارديني وفيتورى، بعد أن لمسوا طغيان الهجوم الذى يواجهه وآثروا السلامة، فى حين لم يؤثرها ماكيافيللى وأصر بثقافته العميقة، وفكره الثاقب، ورؤيته الموضوعية، وخبرته الواسعة، وجرأته التى

تتحدى الأخطار ولا تقنع بمجرد مواجهتها، على أن يقوم من خلال كتاباته التحليلية المسهبة، بتعرية كل دهاليز السياسة المعتمة وكهوفها الملتوية المريبة دون حرج أو حساسية أو مواربة، فإذ بالقارئ يجوس معه عبر كل أركان وزوايا المطبخ السياسى، متعرفاً لأول مرة على أسراره وخفاياه وخباياه، حيث يتم طبخ المعاهدات التى سرعان ما تنقض؛ لأن ما فى داخل النفوس ليس ما على طرف الألسنة، والمؤامرات التى تحاك بليل فيصحو الناس على متغيرات وتفاعلات مأسوية لايدرون لها سبباً، والصراعات الدفينة والمزمنة التى تحاول أن تتجمل بالشعارات البراقة والمثل الإنسانية، والاغتيالات التى تودى بحياة المخلصين الذين يسعون إلى تنوير أبناء بلدهم، وأساليب التعذيب التى تعمل على غسل مخ ضحاياها حتى يغيروا آراءهم قسراً، والتى مر ماكيافيللى ببعضها وعانى منها الأمرين، ومع ذلك لم يغير رأيه أو ينحرف عن الفكر الوطنى والموضوعى الذى اقتنع به واعتنقه وأراد أن يقدمه لبنى وطنه، حتى يملكوا الوعى الفكرى والحضارى القومى الذى يمنحهم القدرة على كشف كل من تسول له نفسه التلاعب بأقدارهم.

لم يشأ ماكيافيللى أن تضيع خبرته التاريخية والحضارية، بكل أبعادها العميقة، هباءً، فأنجز فى الفترة ما بين ١٥١٣م و١٥٢٧م، أى عام رحيله، مجموعة مؤلفات تعد من كلاسيكيات الفكر السياسى العالمى، ولا تزال متداولة على مدى قرون طوال، ومن أساسيات المناهج الدراسية فى معظم معاهد العلوم السياسية. ومن أهم مؤلفاته السياسية والتاريخية والحضارية كتاب «الأمير» عام ١٥١٣م، وكتاب «المطارحات حول الكتب العشرة للمؤرخ الرومانى تيتوس ليفيوس» الذى أنجزه بين عامى ١٥١٣م و ١٥١٦م، و «فن الحرب» فى عامى ١٥١٩م و١٥٢٠م، وكتابه الضخم الموسوعى «تاريخ فلورنسا» الذى يقع فى ثمانية مجلدات، وقد بدأ فى تأليفه منذ عام ١٥٢٠م ويبدو أنه انتهى منه قبل رحيله عام ١٥٢٧م بشهور قليلة. هذا بالإضافة إلى رسائله الشخصية التى نشرت فى أكثر من كتاب، ودراسة فى فن الحكم والإدارة بعنوان «إصلاح حكومة

فلورنسا». كما أبدع أيضا مسرحية كوميدية بعنوان «ماندراجولا» وأخرى بعنوان «كليزيا»، ورواية بعنوان «بيلفاجور» وأخرى بعنوان «سيرة كاسترو تشيو كاسترا كانى». لكن أشهر أعماله جميعا هو كتاب «الأمير» الذى يعتبر بداية الطريق فى الفكر السياسى والعلوم التى تفرعت منه بعد ذلك، بسبب واقعيته الرصينة وموضوعيته الضاربة فى أعماق الوصف والتحليل والتقويم.

كان ماكيافيللى يسعى إلى أن يضمن مؤلفاته كل ما كان يعرفه وما تعلمه من تجارب طويلة وعريضة، وكل ما استوعبه من قراءاته الخاصة بصدد القضايا السياسية، وذلك على حد قوله فى مقدمته لكتابه «المطارحات». فقد كانت غزارة معارفه، وعمق ثقافته، وخصوبة تجاربه، وخطورة القرارات السياسية التى شارك فى صنعها واتخاذها، كافيا ليضفى على مؤلفاته مصداقية عميقة تجمع بين التنظير الفكرى الأصيل والتطبيق العملى الخبير. وعلى الرغم من قوة أسلوبه السلس والمتدفق الذى لعب دوراً ريادياً فى بلورة اللغة الأدبية الإيطالية الموحدة، والذى تجلى فى أعماله المسرحية والروائية، فإنه بمنتهى التواضع صرح بأنه لم يسع إلى إبداع أسلوب أدبى أو أعمال فنية بمعنى الكلمة، إذ تمثل همه الأكبر فى الغوص فى الأعماق بحثاً عن منطق السياسات وقواها المحركة والقوانين التى تحكمها، بعيداً عن التقعر اللغوى والتعقيد الأسلوبى اللذين أغرم بهما أدباء العصور السابقة. كان يريد بلوغ الحكمة السياسية لا التعبير الجمالى، الإقناع لا الثناء، هز مشاعر الناس وتحريك عقولهم، وليس مجرد الترويح عنهم بجمال أسلوبه وروعته. ولذلك تجنب التعقيد فى التعبير الذى جاء سلساً، ومنطقياً، ومفهوماً، ومترابطاً. لقد حقق ماكيافيللى بهذه الريادة ما يطلق عليه العرب «السهل الممتنع».

فقد بلغ الحكمة السياسية التى بلورها بحنكة بالغة، وهز مشاعر قرائه وحرك عقولهم وأقنعهم، لكنه بالإضافة إلى هذه الريادة الفكرية والعلمية، حقق ريادة أدبية وفنية بروعة أسلوبه السلس المتدفق، وإبداعه الأدبى الذى وضعه على

خريطة الأدب الإنسانى بجدارة يستحقها بالفعل. ويقول بعض النقاد الكبار إنه لو أولى الأدب كل اهتمامه لكان نجاحه أكبر بكثير مما كان يتوقعه هو بنفسه. وتعد مسرحيته «ماندراجولا» من أمهات المسرح الإيطالى، وحققت نجاحا لم تحققه أية مسرحية أخرى فى زمنه، مع أنه ـ كما يبدو ـ كتبها لكى يسرى عن نفسه ويخفف من وطأة الهموم عليها، وليس لكى تعرض على الجمهور، ولذلك لم يمنحها سوى القليل من الاهتمام والجهد والوقت. لكن عناصر الريادة والأصالة واللماحية الكوميدية التى احتوت عليها دفعت بها إلى العرض فى كبريات المدن الإيطالية، وجذبت النظارة من مختلف المستويات، بما فيهم شخص البابا نفسه.

وقد أدت صراحة ماكيافيللى العلمية وتحليله الموضوعى لأسرار المطبخ السياسى فى عصره إلى اتهامه بالعداء للأخلاق السامية، وبانتهاك القيم النبيلة والمثل العليا، لكنه لم يؤلف كتبه من تهويمات أفكاره المجردة، وإنما رصد فى سطورها وحلل فى فصولها حوليات زمنه القبيح. ولعل جريمته أنه كان بارعاً فيما سجل، وواضحاً فيما كتب، وصريحاً فيما حلل دون أن يخشى فى الحق لومة لائم، ولذلك صدمت كتبه، خاصة كتاب «الأمير»، الانتهازيين والمتسلقين والمنافقين، واللاعبين على كل الحبال، والآكلين على كل الموائد، والراقصين فى كل الاحتفالات، عندما وجدوا كتابته تعريهم تماما من كل الشعارات البراقة والمظاهر المبهرة التى يحاولون إخفاء حقيقة نواياهم خلفها. وكان من الطبيعى أن يردوا لطماته على وجوههم بلطمات أشد وأقسى، فدسوا له عند أولى الأمر الذين حكموا عليه بالسجن والتعذيب والنفى. لكنه أثبت بجدارة عملية أنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح، فقد تبوأ كتابه «الأمير» مكانة الريادة التى حددت بداية علم السياسة والدولة، وأصبح المرشد الأمين لمعظم الحكام عبر العصور. فقد كان مؤلفه رجلا ذا فكر استراتيجى، ورؤية ثاقبة، واقعيا لا يخاف من قول الحقيقة مهما كانت قاسية وجارحة، بحيث مكّن الشعوب قبل الحكام من أن تضع أيديها على القوانين الحاكمة للتيارات السياسية بحيث صعّب من مهمة الحكام فى خداعها.

وبرغم الاتهامات التى انهالت على كتاب «الأمير» والتى وصمته بالتطرف والتعدى على الأخلاق والمثل العليا، فإن عددا كبيرا من السياسيين والمحللين الكبار يرى أنه لم يفعل أكثر من تقديم تحليل واقعى - وبلا أية محاولة للتجميل - لما يجب أن يعمله الساسة للوصول والحفاظ على مركز الزعامة فى الحقل السياسى، بل لما يفعلونه بوحى من غريزتهم السياسية. فمعظمهم يدرك - ولم يجبره ماكيافيللى على ذلك - أن كل المبادئ السامية والأخلاق الحضارية التى يدعو المجتمع إلى ضرورة أن يتحلى بها المواطن، ليست بالضرورة هى نفس المبادئ والأخلاق المطلوبة لتحقيق النجاح فى مجال السياسة وتسيير دفتها فى محيط متلاطم الأمواج ونهب للأعاصير. وخاصة أن الحاكم مسئول عن أمة بأسرها فى مواجهة أمم أخرى متربصة بها، ولذلك من العسير محاسبته أخلاقيا كما يحاسب الإنسان المسئول عن نفسه ووعوده وارتباطاته بصفة شخصية.

وكانت عبقرية ماكيافيللى بازغة متألقة لدرجة أن أعداءه وخصومه لم يستطيعوا إنكارها عليه، ولم يتبق لديهم من أساليب الهجوم الخبيث سوى اتهامه بأنه أساء الانتفاع بعبقريته وأن كتابه المشهور «الأمير» من الكتب التى ضربت بالأخلاق عرض الحائط، والتى يجب تحريمها وإحراقها وإنقاذ الناس من شر ما احتوت عليه. كما اتهموه بأن الباعث الذى دفعه إلى كتابته كان رغبته الملتوية الخبيثة فى تبصير الطغاة المستبدين بأساليب السيطرة على الشعب ونهب ثروة الأغنياء من خلال تبصير الدهماء والغوغاء بقواعد اللعبة السياسية، وتجريد الفقراء فى الوقت نفسه من الشرف والكرامة. أما أصدقاؤه والمدركون لحقيقة عبقريته السياسية وأبعادها، فيرون فيه الفيلسوف الوطنى والقومى الذى نذر فكره وحياته وجهده وعلمه ومستقبله لبلاده، والذى تطلع إلى الوحدة الإيطالية قبل أن يولد روادها وأعلامها من أمثال ماتزينى وجاريبالدى وكافور بقرون عدة.

ولعل السبب فى هذا التناقض الواضح فى تقدير آراء ماكيافيللى أن حياته وثقافته وخبراته وتجاربه العملية كانت من الشمول والاتساع والعمق بحيث لم

تُعرف المعرفة الكافية. وقد حال ذلك دون الفهم الصادق والاستيعاب الواعى لأفكاره وآرائه ونظرياته، خاصة بالنسبة لأولئك الذين رفضوه بحسن نية. أما ذوو النية السيئة والخبيثة فقد كانت أهدافهم معروفة عندما ربطوا اسمه بالخيانة والغدر والخداع ونكث العهود، فى حين أنه فى واقع حياته كان موظفا كبيرا فى حكومة مدينة فلورنسا ، شديد الإخلاص لبلده ، وعلى استعداد تام لخدمتها بأداء واجباته على خير وجه والتضحية من أجلها، حتى بحياته. ولم تشب سلوكه فى الاضطلاع بمسئولياته شائبة. فلم يُعرف عنه سوى الوطنية الخالصة لوجه الله والوطن، والوفاء لكل من تعامل معهم، والحرص الدائم على الصالح العام. وقد ضحى فى بعض مواقفه بمصلحته الخاصة فى سبيل آرائه ومعتقداته.

ولعل دراسة الإطار الزمنى الذى تحرك ماكيافيللى فيه ، يفسر لنا كثيرا من أسرار المطبخ السياسى التى حاول أن يكشف لنا عن معظمها ، وإن كان فى اقتضاب وتركيز شديدين. فقد أتيح له أن يرى شخصيات من أعجب الشخصيات التى عرفها التاريخ، وعاصر نهضة حيوية تعد انقلابا كاملا على كل التقاليد والقيم التى سارت على نهجها العصور الوسطى من قبل. كانت نهضة عجيبة الشأن، مقترنة بانطلاق تام فى كل ناحية من نواحى الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية والدينية والحضارية والثقافية والاقتصادية. وقد شهدت إيطاليا فى عهد الإحياء هذا، حرية لا تعرف الحدود فى الحريات الشخصية والمسائل الجنسية، وخروجا على الآداب غير مسبوق، واستهانة بالتقاليد المرعية والكوابح الأخلاقية. وفى أقاصيص بوكاتشيو ، وأغانى الأمير لورنزو ميديتشى ، ومسرحيات وروايات ماكيافيللى نفسه شواهد على ذلك.

وفى بعض الأحايين تقترن عصور الحضارة المزدهرة والرخاء المادى والترف والبذخ، بالخروج على القانون، وعجز الإنسان عن السيطرة على شهواته ونزواته، وضعف الوازع الدينى، وانهيار المعايير الأخلاقية تحت وطأة الطوفان

المادى الجارف الذى يتمثل فى جماعات المصالح الاقتصادية المتحالفة مع الزعامات السياسية التى تقف معها فى نفس الخندق المواجه لقوى الشعب، والواقف بالمرصاد لأية تطلعات أو قلاقل قد تصدر عنها. وفى هذه الحالة تنقسم القوى الدينية إلى قسمين: قسم رسمى أو حكومى، وغالبا ما يدخل فى تحالف مع الزعامات السياسية وجماعات المصالح الاقتصادية، مثلما فعل بابوات روما أكثر من مرة؛ وقسم شعبى أو أهلى متمسك بأصول الدين، والحرص على الدفاع عنها، وإصلاح الفساد، ومقاومة المنكر، وكان يمثل هذه النزعة الراهب الإيطالى الثورى سافونا رولا، الذى انتهى نهاية مأسوية عندما حكم عليه بالشنق والحرق فى آن واحد. وغالبا ما كانت الكفة الراجحة لتحالف السياسة والدين والاقتصاد، وهى الكفة التى وجدها ماكيافيللى راجحة دون مبرر إنسانى مقنع لأن الضالعين فيها والرابحين منها يتخذون من السياسة والدين والاقتصاد مجرد وسائل لتحقيق أغراضهم الشخصية فى السلطة والسطوة والجاه والرفاهية. وعندما قرر ماكيافيللى من خلال مواقفه وكتاباته إعادة التوازن والتعادل بين كفتى الميزان، وذلك بالتحليل الموضوعى للأسباب التى أدت إلى اختلال الميزان، فإنه بهذا السلوك دخل وكر الأفاعى، وكان عليه أن يواجه لدغاتها وسمومها حتى آخر لحظة فى حياته.

وقد شهد ذلك العصر تصدع النظام الجمهورى فى إيطاليا وسيطرة الحكام الطغاة على مقدراتها. وكان ماكيافيللى يتابع بحزن وأسى الهزائم الحربية المتوالية، وما ترتب عليها من كوارث ونكبات أجبرت الناس على الرضوخ لحكم الأمراء والملوك المستبدين، مادام يكفل لهم استقرار الأمن والإبقاء على الرخاء الذى ألفوه. ومع ذلك لم يفقد ماكيافيللى الأمل فى أن يؤجج فى النفوس حب الحرية، والنزوع إلى الاستقلال، والمطالبة بحقها فى الحياة الكريمة،والسيادة. لكنه بدلا من أن يلجأ إلى الشعارات المدوية والخطب النارية التى تهيج المشاعر وتفجر الانفعالات دون استراتيجية تقننها وتحولها إلى طاقة متجددة ومستمرة مثلما فعل الراهب الإيطالى سافونا رولا الذى دفع ثمن هذه الإثارة العاطفية من حياته

نفسـها فى النهاية، لجأ ماكيافيللى إلى أسلوب البحث العلمى والمنهج الموضـوعى التحليلى الذى يبحث فى هدوء وتأمل عن الأسباب والدوافع كى يربطها بالنتائج والتداعيات التى ترتبت عليها، ثم يخرج من هذا التحليل والمقارنة بالقوانين أو الثوابت التى تحكم الظواهر أو المتغيرات التى لا يرى معظم الناس العاديين غيرها. ولذلك استمر أثره عبر القرون بنفس القوة والفعالية فى حين انتهى تأثير سافونا رولا بمجرد موته وتحول إلى مجرد حادثة تاريخية تروى على سبيل التدليل على أن المشاعر المتفجرة إذا لم تتحول إلى طاقة منظمة فإنها تحرق فى النهاية من فجرها.

وقد اشترك ماكيافيللى بصفته وطنيا صميما وخادما مخلصا لإمارة فلورنسا فى الأحداث التى وقعت وشقيت بها مدينته، ورأى ما حاق بالمدن الإيطالية من الدمار والخراب، واستخرج من ذلك كله القوانين والدوافع والأسباب التى كانت المضمون الرئيسى لمؤلفاته. فقد كانت فلورنسا موفورة الثروة، ومركزا حيويا من مراكز التجارة والصناعة، لكنها مع وفرة ثروتها لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية ممتلكاتها. ولم يكن لها خارج أسوار المدينة ممتلكات من الأراضى الواسعة والشاسعة حولها، فقنعت بضواحيها المحدودة الكافية بمدها بما يلزم من الغذاء لتموين سكانها الذين كان عددهم فى تزايد مستمر، ولم تكن حدودها مما يسهل حمايته والذود عنه، وكان لها جيش من الجنود المرتزقة، ولم يكن أهلها وسكان ضواحيها وأطرافها مدربين على استعمال السلاح وخوض المعارك. وكانت محاطة بجيران ليسوا لها بأصدقاء أو حلفاء، ولذلك كانت أهم مشكلة تشغل بال أسرة الميديتشى هى المحافظة على سلامة المدينة وحمايتها من خطر أعدائها الرابضين حولها، مما جعل مشكلة الجيش الوطنى من المشكلات الحيوية والمصيرية التى كانت تؤرق ماكيافيللى خاصة فى «الأمير»، و «المطارحات»، و «فن الحرب»، و «تاريخ فلورنسا». وأعلنها صريحة أن الكاذب والمدعى والمزيف بل الخائن هو من يرفع شعارات الكرامة والكبرياء والوطنية والقومية دون أن يملك القوة المادية التى تحمى هذه القيم. إن قيم الحق

والقانون والعدالة هى التى تجعل الحياة جديرة بأن تعاش، لكنها تصبح مجرد حبر على ورق أو كلمة على لسان إذا لم تتسلح بالقوة الفعلية التى تحيلها إلى واقع ملموس.

وكانت النكبة التى منيت بها إيطاليا هى حرمانها من الوحدة القومية. فقد كانت منقسمة إلى دول مستقلة مختلفة تكاد تكون متساوية القوة، ولذلك لم يكن هناك سبيل لإيجاد وحدة تنهض على كل من نابولى والولايات البابوية والبندقية وفلورنسا وميلانو. ولم يكن لإحدى هذه الحكومات من القوة ما يمكنها من أن تقوم بمهمة توحيد إيطاليا. ومما زاد الأمور تعقيدا وجود الولايات البابوية فى وسط إيطاليا. ولم يكن الشروع فى الاستيلاء على تلك الولايات سوى محاربة الكنيسة نفسها. ولم تستطع فلورنسا وحدها الدفاع عن كيانها فى مواجهة كل هذه الضغوط، فسقطت جمهوريتها، وأصبحت إيطاليا كلها فريسة للغزاة، ولم يغن عنها تقدمها فى العلم وتفوقها الفنى. وكان ماكيافيللى فى قلب هذه الأحداث التى ملكت عليه كل تفكيره وتأمله وتحليله. ومما رآه وسمعه وجربه وعاشه استقى مضمون كتبه، وكون فلسفته السياسية مستعينا بمشاهداته وتأملاته ودراساته للأحوال الراهنة، واستيعابه لتاريخ العصور السالفة، وعقده المقارنة بين الحاضر والماضى، وبين أحوال بلاده وأحوال غيرها من الدول المعاصرة والقوميات النامية التى أثبتت بالفعل أن الوحدة القومية هى الإنقاذ الوحيد من انهيار الإمارات أو الجمهوريات التى تتمثل فى المدينة/ الدولة أو الدولة/ المدينة، العاجزة عن الصمود فى وجه التجمعات أو التكتلات القومية المتصاعدة.

وكانت هموم الوطن العامة هموما شخصية عند ماكيافيللى الذى عبر عنها فى أبيات من الشعر حينما تأمل ظروف حياته، وخلاصة تجاربه التى لا تبشر بأى خير لبلاده طالما أنها ممزقة بهذا الشكل. قال:

« أرهف السمع فى أرجاء نفسى لوقع أقدام الأمل البعيد، لكنه لا يأتى فاحترق بنار اللوعة والعذاب الجديد. ولولا أمطار دموعى المنهمرة على أوجاع

قلبى لأصبح رمادا بعد جمر، تتأجج الجمرات فى أغوار نفسى ولا تدركها الأبصار. فقد عميت عن تلمس مواقع أقدامها فى تيه الشتات. لك الله يا وطنى وأهلك هكذا فى عميق السبات ».

وقد كلفه حبه لوطنه فلورنسا ما لا طاقة له به، ومع ذلك احتمل كل الآلام والعذابات التى مر بها، بل ارتفع بنفسه وفكره فوقها ليقدم لأبناء وطنه الدروس والعبر المستفادة، حتى يخرجوا من الدوائر المفرغة التى وقعوا فيها، والطرق المسدودة التى دخلوا فيها، والمتاهات الجانبية التى أفقدتهم القدرة على انتهاج السبل القويمة. وعلى الرغم من السمعة السيئة التى لحقت به وبكتابه الخالد «الأمير»، فإنه استطاع أن يضع فيه الدستور الذى يحقق لبلاده الاستقلال والحرية، لكن منهجه العلمى والتحليلى والموضوعى والعملى مكنه من أن يرى ما لم يستطع غيره أن يراه، وهو أن الوصول إلى الاستقلال والحرية يقتضى التعامل بمرونة فائقة فى مواجهة الظروف القاهرة والضغوط الراهنة. فهو لم يبشر بأن الغاية تبرر الوسيلة، وإنما كان يقدر صعوبة اختيار الوسائل الملائمة لتحقيق الغايات، فإذا كانت الغاية عظيمة ومصيرية ولازمة لحياة الدولة واستمرارها، ولم يكن هناك سبيل إلى تحقيقها بغير الخروج على العرف السائد والأسلوب التقليدى، فلابد فى رأيه من مخالفة ما جرت عليه العادة.

ولم يفقد ماكيافيللى الاتجاه طوال حياته الوعرة الشائكة، وكان فكره الثاقب بمثابة البوصلة التى هدته سواء السبيل. فمثلا كان لظهور سافونا رولا ـ النبى الأعزل كما كانوا يسمونه ـ أثر فى حياة ماكيافيللى. فقد عاصره عن قرب وهو يعمل على إقامة «المدينة المقدسة»، واستخرج من مصرعه الدروس والعبر المستفادة حتى لا تتكرر مثل هذه الحملات الهوجاء التى لابد أن تجهض نفسها بنفسها فى النهاية. فعند بزوغ نجم سافونا رولا والتفاف الجماهير حوله، لم ينجرف ماكيافيللى مع الموجة الجامحة التى ركبها سافونا رولا وقادها. فعندما استمع إلى المواعظ المحمومة التى كان يلقيها، اقتنع بأنه دجال ومحتال ونهاز

للفرص. وقد أيقن أنه أضر بفلورنسا وأن أفكاره لم تكن جديرة بإيجاد الوحدة المأمولة. وكانت هذه الوحدة القومية هى هدف ماكيافيللى الأصيل، وقد رأى فى آراء سافونا رولا مثالية مجردة غير قابلة لإصلاح العالم، واستخلص من ذلك أن أساس الدولة ينهض على القوة والتخطيط المدروس، وأن علم السياسة مرتهن بإدراك الدوافع والمصالح الذاتية للساسة والقادة والزعماء المؤثرين فى مصير الأمة ومستقبلها، وأن من يريد الإصلاح لابد أن يكون له من السيطرة والقوة ما يساعده على فرض إصلاحاته.

والقوة بطبيعتها لابد أن تكون قوة نابعة من الذات وليست مستعارة من الآخر. ولذلك أكد ماكيافيللى على أن الاعتماد على الغير فى الدفاع عن كيان الوطن نكبة من النكبات، وأن سلامة فلورنسا تقتضى إنشاء جيش وطنى، وعدم الاعتماد على الجنود المرتزقة الذين كانت معظم المدن الإيطالية تستقدمهم بالأجر. والأجير لا هم له سوى الحصول على المزيد من المال وعدم تعريض حياته للخطر بقدر الإمكان. ولم يكن لمدينة فلورنسا قائد حربى ولا طبقة من السكان لحمايتها، فكانت فى مهب الرياح. وقد أقنعت هذه الأحوال المضطربة التى تنبئ بالمفاجآت الخطيرة والكوارث المأسوية، ماكيافيللى بضرورة التعجيل بإنشاء الجيش المرابط على الحدود. وبذل فى سبيل ذلك جهدا كبيرا، وأبلى بلاء حسنا دل على روحه الوطنية المتأججة، ووفق بالفعل فى إنشاء الجيش المطلوب.

وهكذا ارتبط تاريخ حياته بتاريخ إيطاليا والبوادر التى مهدت لظهور القوميات العظيمة فى أوروبا. فقد قدر له المساهمة فى تلك الحركة، وقد ختمت حياته فى الوقت الذى ضعف فيه شأن البابوية ومالت شمسها إلى الغروب. وكما بدأت حياته السياسية بغزو الفرنسيين لإيطاليا بقيادة ملكهم شارل الثامن، كذلك كان ختامها عندما تم إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا، وتوطد سيطرة أسرة الهابسبرج عليها ممثلة فى الامبراطور شارل الخامس، وهى السيطرة التى انقشعت غمتها بمجيء عهد زعماء حركة التحرير الإيطالية والوحدة القومية:

مـاتـزيني وجـاريبـالدى وكـافـور. أى أن إنجـازات مـاكـيـافـيللى الفـكرية، والدروس العـملية التى حـللها وبلورها وقننهـا لم تضـع سـدى ولم تذهب هبـاء، بل مـهدت الأذهان والعـقـول والمشـاعـر والطرق والسـبل لقـيـام إيطاليـا القـوية الموحـدة التى يعرفها العالم الآن.

وهذه الدراسـة التى نحن بصـددها الآن، والتى بين يدى القـارئ العـزيز، هى رحلة مثيـرة إلى الجانب المظلم من القمر، الذى أخذنا إليه ماكيافـيللى لنرى الأمور الخفية على حقيقتها، ذلك أن الوجه المضىء للقمر ليس مـشكلة على الإطلاق، فما أسهل رؤيته والتعرف عليه. كـان خبيرا بكل مـا يدور وما يجب أن يدور فى المطبخ السـياسى بكل أسـراره الدفينة وخبـاياه الكامنة فى دهاليـزه وكهوفه المعـتمة التى تنطلـق منها الدوافع والمحـركات لكل التـيـارات السـيـاسـيـة الظاهرة على السطح. والمطبخ السـياسى ليس مـصطلحـا من ابتكارنا، بل هو مـصطلح شائع بين مـعظم السـاسة عندمـا يتكلمـون عن الخطط والمباحثات والمفاوضـات التى تدور بعيـدا عن الأعين المتلصـصـة. وقد يـعلن بعد ذلـك عن هذه الخطوات السـرية أو تظل فى طى الكتمان، لكن الأهـم من ذلك أن يكون الإنسـان واعيا بالقوانين والضـوابط والشـروط التى تطبق على أسـاليب الطبخ حتى يدرك ويميز بين الأصـيل منها والمزيف، وبين المتـقن والسـاذج، وهـو مـا سـعى مـاكـيـافـيـللى بفكره الثـاقب، وتجـاربـه العـمـيـقـة، وثقافتـه الموسـوعية إلى توعيـة القارئ به وتحصينه ضد كل من تسـول له نفسـه أن يتلاعب بعقله وذكائه.

كذلك فـإن هذه الدراسـة هـى بمثابة رد الاعتبار لماكيافـيللى فى عالمنا العـربى على وجه الخـصـوص، إذ أن اعتباره قد رد إليـه كامـلا فى أوروبا بصـفة خـاصـة وفى العالم بصـفـة عامة، منذ ما يقترب من قرنين مـن الزمان. لكننا لازلنا ننظر إليه من خـلال الصـورة التـقليـدية القـديمة التى وردت إلينا مع الاسـتـعـمـار الغـربى لبـلادنا، ونظرا لأننا نفضل ما نعـرفه على ما لا نعرفه، فقد ترسـخت هذه الصـورة المزيفة والمشـوهة فى فكرنا، ولا تزال الماكيافيلية تهمة يتبادلها الساسة العرب فيما بينهم

على سبيل التجريح والإهانة، فى حين أن العالم المتحضر أجمع يفخر الآن بعبقرية ماكيافيللى بصفته رائدا لعلوم السياسة والإدارة والحكم فى العصور الحديثة التى أظهرت أفكاره وفسرت نظرياته على حقيقتها الجوهرية والموضوعية دون تشويه أو إساءة إلى صاحبها. وقد آن الأوان فى عالمنا العربى أن نتبنى هذه النظرة الموضوعية والحضارية لعلنا نستفيد من إنجازات هذا الرائد العظيم، وخاصة أن مشكلات الحكم والإدارة لا تزال عندنا من المشكلات التى تتفاقم فى أحايين عديدة وتصيب وطننا العربى بنكسات فى عصر ينطلق فيه العالم المتحضر إلى آفاق جديدة كل يوم، بل كل ساعة. ولعل هذا الكتاب يكون خطوة نحو هذه الآفاق.

المهندسين فى ١٦ أكتوبر ١٩٩٧ **د. نبيل راغب**

الفصل الأول

أخلاق سياسية أم سياسة أخلاقية؟

على النقيض من المفاهيم والأفكار والتوجهات التى ارتبطت ظلما باسم ماكيافيللى عبر التاريخ، فإن القيم الأخلاقية والدينية كانت من أهم الأسس والدعائم التى نهضت عليها فلسفته الحضارية والاستراتيجية والثقافية والسياسية والسلوكية والفكرية، سواء فى كتابه الشهير «الأمير» أو «تاريخ فلورنسا» أو «المطارحات» أو «فن الحرب» أو مراسلاته مع أصدقائه ومفكرى عصره، لدرجة أنه يمكن اعتباره واحدا من أهم فلاسفة الأخلاق فى عصر النهضة الأوروبية. فقد كان أول من قام بتقنين الجوانب الأخلاقية فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم وأيضا بين الحاكم وغيره من الحكام الذين يتحتم عليه أن يتعامل معهم بطريقة أو بأخرى. كانت فلسفة الأخلاق قبل ماكيافيللى قاصرة على مجال العلاقات والتعاملات بين أفراد المجتمع الواحد، لكنه أدرك الضرورة الملحة للأخلاق بالنسبة للعمل السياسى حتى لا تسود القوة على الحق وبالتالى تهدد قيمة الإنسان تماماً، كذلك فإن الحق بدون قوة تسانده مجرد حبر على ورق.

كان ماكيافيللى أول من فرق بين السياسة الأخلاقية والأخلاق السياسية، فى حين أن معظم من جاءوا قبله من المفكرين والمنظرين السياسيين لم يلقوا اهتماما بالعلاقة بين الأخلاق والسياسة. كانت السياسة فى نظرهم تنهض أساسا على المناورات والحيل والألاعيب والمؤامرات والخدع والمراوغات، وغير ذلك من الوسائل التى تفنن فيها السياسيون عبر التاريخ. فقد كان مبدؤهم دائما أن الغاية تبرر الوسيلة، وهو المبدأ الذى ارتبط ظلما باسم ماكيافيللى لمجرد ذكره له

فى الفصل الثامن عشر من كتاب «الأمير»، على أساس أنه أحد المبادئ أو القوانين التى سار على نهجها معظم الساسة عبر العصور. ولم يخترع ماكيافيللى هذا المبدأ، بل قام بتحليله وتعريته حتى يدرك الأمير أو الحاكم الذى أهداه كتابه، حقيقة القوانين التى تحكم العمل السياسى فى مجمله والتى قد لا تكون واضحة وتحت ضوء علمى وتحليلى وموضوعى.

يقول ماكيافيللى:

«إن النهج الذى يسلك الناس على أساسه بصفة عامة، والأمراء بصفة خاصة، يتمثل فى قاعدة لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها هى أن الغاية تبرر الوسيلة. وعلى هذا الأساس يتحتم على الأمير أن يتحكم فى مقاليد الأمور فى بلده كى ينشر الاستقرار والأمن فى ربوعه، ولابد أنه تبدو وسائله فى سبيل هذه الغاية، مشروعة ونبيلة وجديرة بمدح كل الناس وحماسهم لها. ذلك أن العامة منهم يقنعون دائما بظواهر الأمور والنتائج المباشرة والسطحية للأحداث. وهؤلاء العامة هم القاعدة الشعبية الحقيقية التى لابد أن يحسب حسابها دائما، أما الفئات الأخرى فأقلية لا خوف حقيقياً منها ويمكن عزلها عندما يضرب الأمير بجذوره فى هذه القاعدة الشعبية التى تشعر بالتوحد معه. وأنا أعرف أميرا فى الوقت الحالى - وأنا فى حل من ذكر اسمه - لا يفعل شيئا سوى التبشير بالسلام بين الناس، لكنه فى حقيقة الأمر عدو حقيقى لشعار السلام الذى يرفعه، لأنه إذا تحقق السلام وترسخ بالفعل، فإنه كفيل بفضحه وإضاعة عرشه».

أى أن ماكيافيللى يقوم بتعرية وفضح الذين يرفعون الشعارات البراقة التى تتغنى بالغايات الإنسانية العظيمة كمجرد قناع أو غطاء لإخفاء وسائلهم الدنيئة. والمأساة أن معظم العامة ينبهرون بهذه الشعارات ويسيرون خلفها كالقطيع دون أن يدركوا حقيقة الوسائل المستخدمة التى لا تنفصل فى النهاية عن الغايات نفسها. بمعنى أن الوسائل الدنيئة لابد أن تؤدى إلى غايات من نفس جنسها حتى لو تخفت وراء المثل العليا، وتظاهرت بالقيم الأخلاقية والإنسانية السامية. ويتذرع

معظم السياسيين المحترفين بأنه لا توجد معايير محددة من القيم والمثل العليا بحيث تجبر السياسى على الالتزام بها. وبالتالى فإن له مطلق الحرية فى استخدام الوسائل التى يجدها مناسبة لتحقيق غاياته، وبلوغ أهدافه، وقهر خصومه بصرف النظر تماما عن نوعية هذه الوسائل.

ويستنبط ماكيافيللى من تفسيره للتاريخ، الدروس التى تثبت أن هذا النوع من السياسة وإن كان قد نجح إلى حد كبير، فإن نجاحه ظل مرتهنا بفترته المؤقتة، ولم يقدم منهجا إنسانيا يمكن أن يعتمد عليه رجال السياسة فى المستقبل. ومن هنا كان حرص ماكيافيللى على وضع مثل هذا المنهج العلمى والعملى والموضوعى فى كتبه، خاصة كتاب «الأمير». فهو يرى أن الفكر السياسى فكر منطقى متسق قبل أن يكون مجرد مناورات مؤقتة تسعى لحل المشكلات أولا بأول وكيفما اتفق. وهناك فرق بين الزعيم المفكر الذى يملك نظرة شاملة إلى عصره، وإلى موقع بلده على خريطة هذا العصر، وبين السياسى المحترف الذى تستغرقه المشكلة الراهنة تماما فلا يراها ضمن نسيج عضوى ومتشابك من الأحداث والمواقف.

هنا يبلور ماكيافيللى الفرق بين السياسة الأخلاقية والأخلاق السياسية. فالسياسة الأخلاقية هى التى تنأى عن المطامع الشخصية والمصالح الأنانية، وتحرص على وضع السياسة فى خدمة الأخلاق، أما الأخلاق السياسية فهى التى تناور وتلف وتدور اعتمادا على أن الغاية تبرر الوسيلة، والتى تمنى ماكيافيللى أن تكون مجرد استثناء من القاعدة، لكنه أدرك بوعيه السياسى والتاريخى أنها كانت فى معظم الأحيان القاعدة الراسخة وغيرها الاستثناء. ذلك أن الطبيعة البشرية بكل طموحها وجشعها وسعيها المسعور لامتلاك القوة والمال والسطوة والجبروت، تميل دائما إلى وضع المصالح القومية العليا والقيم الأخلاقية والدينية فى خدمة الأهداف الضيقة المؤقتة التى ترتبط بالأشخاص أو الجماعات التى لا تمثل المجتمع بصفة عامة، وإنما تمثل مصالحها المادية والسياسية المؤقتة. فالأخلاق عند ماكيافيللى ليست مجرد قيم أو شعارات أو مُثل نظرية تتغنى بما

ينبغي أن يكون، بل يجب أن تتجاوز النظرية إلى التطبيق العملي، أى إلى ما هو كائن بالفعل سواء بالنسبة للقيم الأخلاقية أو الممارسات السياسية.

وكان ماكيافيللى نفسه ضحية دهاء الساسة وخبثهم حين اتخذوا من كتاباته حجة أو ذريعة تدعى أنها هى السبب فى كل المآسى والمحن والسفالات والدسائس والمكائد، لأنها علمتهم كيفية ارتكابها، وكأنهم قبل ماكيافيللى كانوا ملائكة أطهارا ولم يتدنسوا إلا على يديه، فى حين أنهم أغرموا بقطع أفكاره وجمله من سياقها حتى يسهل عليهم تلوينها باللون الذى يناسب أهدافهم الخفية والتى غالبا ما تكون غير أخلاقية. فإذا أخذنا قوله بأن الغاية تبرر الوسيلة على سبيل المثال، فإنهم ادعوا أو ظنوا خطأ أو أساءوا فهم هذه المقولة، حين أشاعوا أن الوسائل عنده ليست سوى رذائل، وأنه لا توجد فى السياسة وسائل شريفة وسامية وراقية، فى حين أنه ليس هناك أى ارتباط منطقى أو معقول بين الوسيلة والرذيلة، إلا إذا لجأ السياسى إلى مثل هذا الربط حتى يحقق غاياته بأسهل وأسرع ما يمكن. أى أن العيب ليس فى آراء ماكيافيللى، بل فى توجهات الساسة عبر العصور، الساسة الذين لقبوا ماكيافيللى بالشيطان. بل إن بعضهم أطلق على الشيطان نفسه لقب «نيكولو العجوز» على أساس أن نيكولو هو الاسم الأول لماكيافيللى.

ولم يتعرض مفكر أو فيلسوف سياسى واجتماعى للتجريح والسباب والإهانة مثلما تعرض ماكيافيللى الذى لم يفعل شيئا سوى وضع النقط على الحروف، وكشف ما هو قائم بالفعل بصراحة قل أن نجد لها نظيرا فى تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى. إن إسحق نيوتن مثلا اكتشف الجاذبية ولم يخترعها، وكذلك ماكيافيللى الذى اكتشف الجانب المظلم من النفس البشرية، وألقى الأضواء الفاحصة والمبهرة على دهاليز السياسة وكهوفها المعتمة، لكنه لم يخترعها أو يبتكرها. كان هدفه خلق وعى سياسى وإنسانى بحقائق الحياة، السلبية والإيجابية منها على حد سواء، وذلك بوضع مرآة صادقة أمام الجميع حتى يروا أنفسهم على حقيقتها بلا زخرفة أو خداع أو تلوين. وكانت عاقبة

ماكيافيللى هى نفس عاقبة الذين أجبروا البشر على رؤية حقيقتهم عارية، ومواجهة حقائق الحياة بلا مواربة عبر التاريخ. ونظرا لبشاعة هذه الحقائق فقد حاول أصحاب الشأن طمسها بقدر الإمكان، وذلك بتشويه صورة من قام بالتعرية حتى يكون عبرة لمن يفكر فى السير على دربه مستقبلا .

لقد اتهم ماكيافيللى بالكذب، والادعاء، والشهادة الزور، والنفاق، والطغيان، والخيانة، والشر، وفتح الأبواب أمام كل رغبات الانتقام الحارق والطموح المدمر لكل ما بناه البشر فى العصور السابقة. وعلى هذا الأساس سجل المؤرخون أن سياسة الغش والخداع والتدليس والتزوير التى اتبعها موريس أمير ساكسونيا كانت بوحى من الكتاب الشيطانى الذى كتبه ماكيافيللى باسم «الأمير». فى حين ادعى آخرون أنه بمجرد ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة التركية أصبح السلاطين العثمانيون أكثر شراهة لإراقة الدماء، بل خنق إخوتهم الواحد بعد الآخر. واتهم المؤرخ لورد ليتلتون ماكيافيللى بأن كتابه كان السبب فى كل الخيانات والمذابح التى ارتكبت فى إيطاليا وأوروبا، بما فيها مذبحة الاحتفال بالقديس بارثولوماو. وأكد كتاب عديدون أن استخدام البارود بوحشية حصدت الأرواح فى ميادين المعارك كان نتيجة لخططه التى فصّلها فى كتابه،ولذلك فهو يستحق الحرق حيا، أو حرق دمية تشبهه ميتاً حتى تسقط روحه فى أعماق الجحيم.

ولم يتعرض أحد من هؤلاء المهاجمين لإصرار ماكيافيللى على أن يوصى الأمير بالتمسك بأهداب الأخلاق الحميدة والقيم الدينية التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. ونظراً لوعى ماكيافيللى العميق بخفايا النفس البشرية، وإدراكه أن الأخلاق الحميدة والقيم الدينية يمكن أن تكون آخر شىء يهتم به الأمير، فإنه يصارحه بجرأة منقطعة النظير بأن عليه أن يتظاهر على الأقل بالتمسك بها إذا لم يستطع أن يمارسها بالفعل ويحولها إلى منهج تطبيقى وعملى. ذلك أن ماكيافيللى بصفته مفكرا موسوعيا وشاملا، يحرص على وضع كل الاعتبارات فى حسابه حتى لا تعتور نظريته ثغرات أو فجوات يمكن أن تخلخل من بنائها المنطقى المتماسك. فمن الصعب على الكثير من الحكام والقادة السياسيين أن يتخلصوا من الأطماع العابرة، والطموحات الفارغة، والمظاهر الكاذبة، وشتى أمارات

الاستبداد والقوة الزائفة، إذ أنهم يرون فى القيم الأخلاقية والدينية مجرد مطية لتركبها أطماعهم السياسية، وإذا وقفت هذه القيم عقبة فى سبيل تحقيق هذه الأطماع فإنهم يصرفون النظر عنها فى الحال ويكشرون عن أنيابهم أمام الجميع.

وربما كان المنهج الأخلاقى فى السياسة منهجا صعبا بل وعرا، لكنه كفيل - على الأقل - بإحاطة الحاكم بصورة براقة وأثيرة لدى الشعب الذى لابد أن يحترمه ويحبه ويتعلق به نتيجة لهذه الصورة. يقول ماكيافيللى فى الفصل الثانى من كتاب «الأمير» تحت عنوان «عن الممالك الموروثة»:

« إذا لم يتسبب الأمير فى إساءة واضحة لشعبه، فإنه من الضرورى أن يحوز حب شعبه. وإذا لم تؤد رذائله إلى فضحه ووضعه فى صورة كريهة أمام شعبه، فلابد أن يتعلق به ويمنحه حبه بلا حدود. ومن المتوقع فى معظم الأحايين أن يتغاضى الشعب عن الأسباب الطفيفة والعابرة التى دفعته إلى التفكير فى تغيير أميره، وذلك مع استمرار زمن حكمه، لكن إذا تغيرت مشاعر شعبه نحوه، فإن الباب يفتح تدريجيا لتغيير آخر ينتهى بالإطاحة به».

وطبقا لنظرية ماكيافيللى المتكاملة فى مجال الأخلاق والسياسة والاجتماع، فإن الحق لا وجود له إذا لم يتسلح بالقوة التى هى اللغة الوحيدة التى يفهمها كل البشر بلا لبس أو غموض أو مراوغة. وقد يتفق الجميع على أن الحق حق، وأنه لا يصح إلا الصحيح، ومع ذلك تظل اللغة العالمية المسموعة والوحيدة متمثلة فى القوة المادية. لكن إذا لبس الحق أردية القوة المادية فلن تقف فى سبيله أيةعوائق أو عقبات. ولذلك يؤكد ماكيافيللى على أن الحسابات العلمية والعملية التى تهدف إلى استعادة الحق لابد أن يكون شرطها الأول كيفية استخدام القوة المادية فى الزمان والمكان المناسبين، وكيفية الوصول بهذا الاستخدام إلى أعلى درجات الكفاءة والقدرة الفاعلة. أما المطالبة بالحق عن طريق الخطب الرنانة، وإثارة المشاعر المتشنجة، فكل هذا مضاد بطبيعته لمنطق الاستعادة الفعلية للحق المسلوب. وأقل ما يمكن أن يقال أنه تنفيس عن الشحنات العاطفية المكبوتة، وبالتالى تشتيت الطاقة النفسية للأمة إذا ما حانت ساعة العمل المصيرى.

وكان المفكر والمصلح الدينى سافونا رولا (١٤٥٢م – ١٤٩٨م) المعاصر لماكيافيللى (١٤٦٩م – ١٥٢٧م) نموذجا مأسويا على هذا التوجه.

كان الجد يريد لحفيده أن يكون طبيبا مثله، لكن سافونا رولا هرب فى عام ١٤٧٥م ليدخل دير الدومنيكان فى مدينة بولونيا، بعد أن ترك لوالده خطابا يفسر فيه تصرفه بأنه فرار من «شقاء العالم ومن فساد البشر»، كما أرسل إلى والده كتابا كان قد ألفه بعنوان «احتقار الدنيا»، شجب فيه الحضيض الذى هبط إليه عصره. لقد كان يعد نفسه ليكون واعظا يهدى الناس من المنبر إلى طريق الله والفضيلة والحياة الأخرى. وعندما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، تم إغلاق دير الدومنيكان بسبب تعرض المدينة للغزو، ونقل رهبانه إلى أديرة شتى. وكان من نصيب سافونا رولا أن نقل إلى دير سان مارك فى فلورنسا عام ١٤٨١م.

انكب سافونا رولا على دراسة سفر «الرؤيا» - أخر أسفار العهد الجديد فى الإنجيل - وهو السفر الذى ينذر البشر باقتراب علامات الساعة بسبب كثرة ذنوبهم، ويتوعد الخطاة بنهاية العالم بالكوارث الكونية الرمزية، ويفتح أمامهم هاوية الجحيم. وشرع سافونا رولا فى سلسلة عاصفة من المواعظ التى انتهت به إلى أن أصبح ملكا غير متوج على فلورنسا، يتحكم فى تنصيب الأمراء والقادة، وفى سن الشرائع والقوانين، وفرض سطوته بقوانين حديدية أقنع الجميع أنها قوانين إلهية، منذرا بأن الغضب الإلهى سوف يحيق بالجميع إذا لم يتوبوا ويعودوا إلى حظيرة الإيمان.

كان سافونا رولا يندد بإقبال الرجال على السكر والميسر والانحلال الجنسى، فوجد فى فلورنسا سندا قويا. وواصل هجماته وصب جام غضبه على كل المفاسد التى تجتاح المدينة حتى دخل منطقة المحظورات، فأصبح يندد باستمرار فى مواعظه بطغيان الحكام، وبفساد الطبقة الحاكمة، وبالاستبداد السياسى، وبالمظالم الواقعة على الفقراء. وهنا دخل فى عرين الأسد حين واجه لورنزو دى ميديتشى عاهل فلورنسا والحزب الكبير الموالى له. ومع ذلك كان

لورنزو سياسيا متمرسا، فتجاهل الإهانات المسددة إليه بالإيحاء، ولم يزد تعليقه على قوله بأنه على استعداد لأن يغفر له سوء أدبه إذا استطاع أن يصلح من أخلاق أهل فلورنسا.

وفى يوليو ١٤٩١م انتخب سافونا رولا رئيسا لدير سان مارك. واشتهر بأنه مكشوف عنه الحجاب وقادر على التنبؤ بالغيب. فقد تنبأ بدمار مدينة بريشيا عندما زارها فى عام ١٤٨٦م، وعندما احتلها الفرنسيون وخربوها تذكر الناس نبوءته، وبعد ذلك أعلن نبوءته بموت لورنزو والبابا وملك نابولى فى أجل قريب. وقد كان، مما منحه قوة معنوية وروحية سيطرت على إمارات إيطاليا وممالكها وجمهورياتها. وبقدر ما كان غضوبا ومشتعلا حين يعتلى المنابر، كان فى منتهى التواضع والوداعة والحلم والرقة فى حياته الخاصة، خاصة مع رهبان الدير. لكنه لم يكتف بدور المصلح الدينى الداعى إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، بل كان يبتغى السلطة الدنيوية ليضع القوانين الإلهية موضع التنفيذ.

وبالفعل دُعى سافونا رولا عام ١٤٩٤م إلى المشاركة فى إعادة صياغة نظام الحكم فى فلورنسا بعد رحيل بييرو دى ميديتشى. وهكذا دخل الراهب الواعظ عالم السياسة المليء بالمحاذير والأخطار. وكان هدفه تسخير سلطة الدولة فى فرض الفضيلة وعقاب الرذيلة بالقانون. واستغل حيوية صبية المدينة وشبابها فحولهم إلى قوة أخلاقية ضاربة ضد كل مظاهر الفساد. ولم يجد احتجاج المواطنين على هذا العدوان على الحرية الشخصية، ومن حاول منهم أن يرد عدوانهم وأن يوقفهم عند حدهم أرسلت الحكومة مندوبا لحماية هؤلاء المتطوعين والمفتشين من الشباب.

وتحرك فى فلورنسا أعداء الراهب الرهيب من آل ميديتشى، وكبار الأثرياء، وأنصار الحلف الإيطالى، وفرق الرهبان المنافسة للدومنيكان مثل الرهبان الفرنسيسكان، وبدءوا مهاجمته فى المجلس الحاكم بتهمة خلط الدين بالسياسة. لكنه لم يتخاذل لأن أعداءه كانوا متناحرين، مما شجعه على تحدى البابا اسكندر

السادس نفسه على سبيل تصعيد ثورته الدينية التى بدأها عام ١٤٩٤م فى فلورنسا ضد بييرو دى ميديتشى وانتهت بخلعه وفراره. لكن ثورته أدت إلى تدهور أحوال فلورنسا اقتصاديا وسياسيا، فانكمشت موارد الدولة، وضاعت بيزا من فلورنسا بسبب التدخل الفرنسى، وأرسلت حكومة فلورنسا حملة فشلت فى استردادها، مما أدى إلى زعزعة مركز سافونا رولا الذى لم يكن يملك القوة المادية والحكمة السياسية الواعية التى تمكنه من وزن الأمور والتحكم فى مساراتها، ذلك أن حماس الشباب لتطبيق شعاراته ومبادئه التى أعلنها لم يكن يكفى أبدا عندما تحين ساعة الحسم المصيرى.

أصبحت فلورنسا ريشة فى مهب الرياح بعد استنجادها بشارل الثامن ملك فرنسا مرة أخرى، مما أدى بماكسيميليان امبراطور النمسا إلى عبور جبال الألب قاصدا الاستيلاء على فلورنسا ليحول دون التوسع الفرنسى، واحتل بيزا بالفعل. وانتهز البابا الفرصة ليشدد الرقابة على سافونا رولا الذى سعى لإصلاح أخلاق أهل فلورنسا بالقوة الفارغة من المضمون الحقيقى، فكانت النتيجة انهيارها المادى أمام القوة الحقيقية المتدفقة عليها من خارج حدودها. وكانت النتيجة أن كثر الشغب فى المدينة، وكانت هناك مطالبة بنفى سافونا رولا، لكن البابا سارع بإصدار قرار حرمانه واتهمه بالزندقة. لكن توالت العرائض والمواكب طالبة عودته إلى منبر الوعظ، فرضخت الحكومة لها تحت ضغط ميليشيا الجنود المرتزقة الذين استأجرهم أنصاره. وكان لعودته إلى الحياة العامة أسوأ الأثر فى الفاتيكان لدرجة أن البابا هدد بإصدار قرار التحريم على فلورنسا كلها، أى تحريم إقامة الشعائر الدينية فيها وتحريم التعامل معها حتى تكف عن السير وراء هذا الراهب العاصى. هنا فقط أحست فلورنسا بالخطر واضطر سافونا رولا إلى الاعتزال.

لكنه واصل بعد ذلك إثارة الاضطرابات، ودفع بأحد أعوانه من الرهبان إلى إلقاء العظة يوم أحد السعف، لكن الحرس الفرسان اقتحموا الكنيسة وشتتوا المصلين، ثم اتجهوا إلى دير سان مارك عند هبوط الليل، ودار اشتباك مسلح مع

الرهبان والمدنيين الذين كدسوا الأسلحة لاستخدامها. وفى الثالثة صباحا استسلم سافونا رولا ليجره الجمع فى الشارع ويوسعوه لكما وإهانة. لكن الحرس أنقذه ليواجه محاكمة بعد عشرة أيام من التعذيب الذى أجبره على أن يعترف بأنه كان نبياً كاذباً، وأنه كان يدعى ما يدعيه من أجل المجد والشهرة. ووقع على اعترافه وصدر الحكم بالإعدام شنقا وحرقا فى الوقت نفسه مع اثنين من أتباعه.

وبالطبع كان ماكيافيللى يتابع كل هذا بصفته من مواطنى فلورنسا، ووجد فى سافونا رولا درساً عمليا للغاية الأخلاقية والدينية النبيلة التى تتوسل بوسائل غير شريفة وزاخرة بالخداع والوهم وجنون العظمة، فتكون النتيجة أن الغاية نفسها تفقد كل دلالاتها الأخلاقية والدينية وتنقلب على رأس صاحبها وكل الذين تبعوه فى النهاية. فالغاية لا يمكن أن تنفصل عن الوسيلة، وغالبا ما تكون من جنسها. أى أن الوسيلة الشريفة النبيلة هى التى تبرر الغاية، لكن من يخفى الوسيلة بالخداع والكذب والتمويه فى حين يعلن عن نبل غايته، هو فى حقيقته دجال وكاذب ومخادع. ولو كانت دعوة سافونا رولا تنهض بالفعل على القيم الأخلاقية والدينية كغاية فى حد ذاتها، وليس كوسيلة لتحقيق أغراض صاحبها الخفية، لكان من الممكن أن تتحول هذه القيم إلى قوة فاعلة صامدة فى وجه المتربصين بها. لكنها كانت مجرد شعارات جوفاء مرفوعة لإخفاء حقيقة أهداف صاحبها وغايته، ولذلك لم تكن تملك القوة التى يمكن أن تحميها. وبالفعل عندما حانت ساعة الحسم تساقطت كأوراق الخريف.

ومفهوم القوة عند ماكيافيللى يركز على المضمون والجوهر أكثر من تركيزه على الشكل والمظهر. فالقوة حتمية لا مفر منها لمساندة القانون والأخلاق والمثل العليا، وتنهض على إيمان حقيقى وعميق بها. أى أنها لابد أن تحتوى على مضمون أخلاقى لأن القوة غير الأخلاقية من طبيعتها أن تدمر كل شىء فى طريقها، فإذا لم تجد ما تدمره فإنها تدمر صاحبها فى نهاية الأمر. فهذا هو القانون الذى يحكم كل الطاقات المدمرة عندما لا تجد ما تدمره، وهو ما حدث لسافونا رولا الذى شحن الشباب بطاقات روحية مزيفة، ثم سمح بعد ذلك بتكديس الأسلحة فى الدير لخوض معركة دنيوية بحتة ومضادة لمبادئ المسيحية

التى ترفض رفع السلاح فى وجه الخصم. أى أنه لجأ إلى وسائل تتعارض تماما مع الغايات التى ينشدها، وبالتالى كان من المستحيل أن تبررها.

وفى الفصل الحادى عشر من كتاب «الأمير» يوضح ماكيافيللى للأمير أو الحاكم أن النفوذ الدينى يتحقق اعتمادا على قدرات وطاقات خاصة يمتلكها بعض الأفراد، يساعدهم على ذلك أن القيم والاعتبارات الدينية تكون محاطة - فى معظم الأحايين - بسياج من العادات والتقاليد الدينية القديمة التى تحقق لذوى النفوذ الدينى حظا من القوة بصرف النظر عن الأسلوب الذى يمارسون به حياتهم، ويعالجون به مشكلاتهم. ولذلك يعد سافونا رولا أميرا فعليا وإن لم يكن قد توج أو انتخب أو ورث الإمارة. ويؤكد ماكيافيللى أن مثل هؤلاء الأمراء الذين يستمدون سلطانهم من الدين لا يحتاجون إلى تجهيزات مادية ضخمة للدفاع عن ولاياتهم، ذلك أن رعيتهم رهن إشارتهم دونما حاجة إلى فرض سلطات الحكم عليهم. إن ولاياتهم لا تنتزع منهم، وشعوبهم لا تثور عليهم، ولا تحاول الاستقلال عن نفوذهم وسلطانهم، على أساس أنها متصلة بأسباب علوية إلهية لا سبيل للذهن البشرى إلى الخوض فيها. لكن إذا انفصلت هذه الأسباب عن الأمير أو الزعيم واكتشف الجميع أنها كانت مجرد ادعاءات مزيفة وكاذبة، فالويل والثبور وعظائم الأمور فى انتظاره كما حدث لسافونا رولا.

وكان الانتماء من أهم القيم الأخلاقية والدينية التى حرص ماكيافيللى على تأكيدها وترسيخها، ولذلك كان رافضا باستمرار استخدام الجنود المرتزقة فى الجيوش الوطنية. فهو يرى أن الدول المستقرة تنهض على دعامتين رئيسيتين هما: منظومة متسقة من القوانين، وجيش قوى، ولا يمكن أن يستغنى أحدهما عن الآخر. فلا توجد قوانين محترمة وفعالة فى غيبة الجيوش القوية التى تحميها من انتهاك الآخرين، كذلك فإن الجيوش القوية فى حاجة إلى قوانين تنظم جهودها وإنجازاتها. ويقسم ماكيافيللى القوات المسلحة إلى جيش خاص بالأمير، سبق له ولأسلافه تكوينه وتسليحه وتدريبه، أو قوات مسلحة مرتزقة، أو قوات مسلحة للمساعدة فى مهمة حربية معينة، أو قوات مسلحة مختلطة.

ويحذر ماكيافيللى من أن القوات المرتزقة والقوات المساعدة لا تملك قيم الانتماء الوطنى أو القومى، ولذلك فإن أضرارها وأخطارها أكثر بمراحل من جدواها وفائدتها. ولو دعم أحد دولته بحراب المرتزقة فإنه سيفقد القدرة على امتلاك أرض صلبة يقف عليها ويثق فى سلامتها. ذلك أن القوات المرتزقة تفتقر إلى التلاحم فيما بينها، فليست لها أهداف محددة تحرص على تحقيقها سوى الحصول على أكبر قدر ممكن من المال بأقل قدر ممكن من الجهد والمخاطرة. فهذا هو طموحها الوحيد. كما أنها لا تثبت على نظام واحد، ولا تخلص لمن استأجرها. تبدئ الشراسة والجبروت كنوع من الاستعراض أمام الأصدقاء، لكنها سرعان ما تتراجع بمنتهى الجبن أمام الأعداء عندما يكشرون عن أنيابهم.

يصف ماكيافيللى المرتزقة فى حديثه إلى «الأمير» فيقول إنهم:

«لا يخشون الخالق، ولا يوفون بعهد المخلوق، ولا يتأخر خراب الدولة بسببهم إلا بقدر ما يتأخر أى هجوم موجه إليها، يستنزفونك فى السلم، ولا يحمونك من العدو عندما تحين ساعة القتال. فهم لا يشعرون بأى حب أو انتماء يجعلهم يثبتون فى ميدان القتال لقاء أجر يعتبرونه بخساً ـ مهما كانت ضخامته ـ مقابل فقدان الحياة نفسها. إنهم على أتم استعداد ليكونوا جندك ما دمت لا تحارب، أما عندما تقع الحرب فإنهم يتلاشون مع قدومها أو ينسحبون خلالها. ولا أجد أية صعوبة لإثبات هذه البدهيات، ذلك أن خراب إيطاليا كان نتيجة مباشرة لاعتماد الإمارات الإيطالية على المرتزقة لفترات طويلة. ولا شك أنهم ساعدوا بعض الأمراء بالفعل فى اعتلاء عروشهم، لكن مظاهر الفروسية والشجاعة والجرأة لم تكن تتجلى فيهم إلا عندما يواجهون مجموعة أخرى من المرتزقة.

«ولكن عندما يشرع غاز أجنبى فى مهاجمة الوطن، فإنهم سرعان ما ينكشفون على حقيقتهم ويتضح عدم جدواهم. وهكذا تسنى للملك شارل ملك فرنسا أن يحتل إيطاليا دون عناء، أما أولئك الذين قالوا إن ذلك كان بسبب خطايانا فإنهم لم يجانبوا الصواب والحقيقة، لكن «الخطايا» هنا لابد أن يقصد بها «الأخطاء» التى سبق لى ذكرها عن المرتزقة الذين شكلوا معظم القوات العاملة فى

جيوش الإمارات الإيطالية عندما شرع ملك فرنسا فى غزوها، ولأن تلك «الخطايا» إنما كانت أيضا من خطايا الأمراء لاعتمادهم عسكريا على المرتزقة، إذ كان من الطبيعى أن يعانوا شتى ألوان العذاب».

ومن الواضح أن ماكيافيللى كان يقصد سافونا رولا عندما ذكر أولئك الذين أرجعوا أسباب احتلال فرنسا لإيطاليا، إلى الخطايا التى ارتكبها الشعب الإيطالى، لكن ماكيافيللى أحال السبب اللاهوتى إلى سبب عقلانى وواقعى مفاده أنه لا يوجد إنسان على هذه الأرض يستطيع أن يفلت من العواقب التى تسبب فيها. فالخطايا يرتكبها الإنسان فى حق ربه أما الأخطاء فيرتكبها فى حق وطنه. والواقع يوضح لنا أن الفارق ليس كبيرا بين الخطايا والأخطاء؛ لأن كلتيهما تقع تحت مظلة القيم الأخلاقية والدينية، ولذلك يمكن أن يؤدى كل منهما إلى الآخر. إن عوامل الفساد البشرى وانتهاك القيم الدينية هى السوس الذى ينخر فى عظام الوطن الذى لن تقوم له قائمة إذا ظل الوضع على ما هو عليه، وكذلك الأخطاء الأخلاقية والدنيوية التى يرتكبها الأمراء أو الحكام، وفى مقدمتها الاعتماد على المرتزقة فى الدفاع عن وطن لا يهمهم فى كثير أو قليل. ولذلك يشرح ماكيافيللى بالتفصيل عيوب هذه الجيوش المرتزقة فيقول:

« إن قادة الجيوش المرتزقة إما أكفاء مقتدرون وإما غير أكفاء وعاجزون، فإذا كانوا أكفاء مقتدرين فليس هذا مدعاة لأن تعتمد عليهم، لأنهم منصرفون دائما إلى تحقيق أمجادهم الخاصة بهم. وهذا لا يتأتى لهم إلا بقهرك أنت برغم أنك ولى نعمتهم، أو بقهر رعاياك وحلفائك برغم أنفك. أما إذا كان قائد المرتزقة عاجزا وهزيلا فإنه لابد أن يدمرك بسبب ضعفه عند مواجهة العدو. وإذا قيل إن هذا الذى يتسبب فيه القادة المرتزقة يمكن أن يرتكبه غيرهم، فإننى أقول إن الجيش إما أن يكون فى خدمة رئيس الدولة أو الأمير، أو يكون فى خدمة الجمهورية. فلو كان فى خدمة أمير، فإن مثل هذا الأمير سيتقلد قيادة الجيش عند مواجهة العدو فى أرض المعركة. ولو كان الجيش تابعا لجمهورية فإن قائد الجيش سيكون أحد أبنائها، وإذا عجز عن إثبات كفاءته فإنه يعزل من القيادة بسهولة لكى يحل محله

قائد أكثر كفاءة، ذلك أن قوانين الجمهورية كفيلة بألا يتجاوز قائد الجيش حدوده».

ثم يستقرئ ماكيافيللى وقائع التاريخ وأحداثه ليثبت أن جيش الأمير الوطنى غير المرتزق وكذلك الجيش الذى يتكون من أبناء الجمهورية، يمكن الأمير أو الجمهورية من إحراز التقدم فى حين لا يستفيد من استخدام المرتزقة إلا الأمراء الذين لا يتمتعون بحب مواطنيهم. ولا يستسلم الجيش الذى يتكون من أبناء الجمهورية للأعداء بسهولة كما يفعل المرتزقة الذين يسعون وراء المال ويحرصون فى الوقت نفسه على حياتهم ساعة الخطر.

ويرتبط الانتماء الوطنى بقيمة أخلاقية أخرى هى الحب الذى يعد الدعامة الأساسية للعلاقة الصحية والسليمة بين الحاكم والمحكوم. ففى الفصل التاسع عشر من «الأمير» يحتم ماكيافيللى على الحاكم أن يتحاشى كل الأمور التى تجعله مكروها أو محتقرا فى نظر شعبه. وعندما ينجح فى عقد أواصر الحب والتواصل بينه وبين شعبه فإنه بهذا يكون قد قام بدوره خير قيام، وسد كل المنافذ التى يمكن أن يتسلل منها أى خطر يهدد سمعته، والشعب ـ أى شعب ـ لا يمكن أن يحب حاكما جشعا يبتز أموال الرعية، ويغتصب ممتلكاتهم ويعتدى على أعراض نسائهم. فهناك قيم أخلاقية لا يمكن أن يتجاهلها الحاكم حتى يستطيع أن يعيش حياة راضية مستقرة بين أبناء شعبه الذين يمثلون الأغلبية وبالتالى الدعامة الحقيقية التى يقوم عليها حكمه الراسخ. أما صراع الحاكم ضد أطماع الأقلية فلا خوف عليه منه، ويمكن حصره ودرء خطره بسهولة وبطرق شتى طالما أنه يقف بأقدام ثابتة على قاعدة شعبية راسخة.

ويحدد ماكيافيللى الأخلاقيات الضرورية للحاكم فيقول:

« يعتبر الأمير فى نظر شعبه خسيسا غير جدير بالحكم عندما لا يثبت على حال، ويبدو له متقلبا، مستهترا، مخنثا غير مكتمل الرجولة، مترددا. فهذه كلها صفات يتحتم عليه أن يأخذ حذره منها لأنها مثل صخرة لابد أن تهوى على رأسه من علٍ. كما يجدر به أن يبدو كريم الأصل، قوى العزيمة، وقورا، رزينا،

ناضجا. كما ينبغي على حكومته أن تبدو نافذة القرارات التي تصبح غير قابلة للإلغاء بمجرد صدورها. ولابد أن يشعر الشعب بحرص الأمير ودقته وموضوعيته في اتخاذ قراراته حتى لا يشك أحد في أنه يصدرها لحساب قطاع من المنتفعين استطاع أن يخدعه ويستقطبه لصفه».

لكن فلسفة ماكيافيللي العقلانية والعملية والعلمية والتحليلية لا تنظر إلى القيم الأخلاقية نظرة مطلقة غير مرنة، لأنها تتعامل مع بشر لا يظلون على حال واحدة، بل يتغيرون ويتبدلون تحت وطأة الظروف التي يمرون بها. ولذلك فإن أسلوب توظيف هذه القيم وتطبيقها يخضع للتقويم النسبي للأمور الراهنة. فمثلا في الفصل السابع عشر من كتاب «الأمير» الذي منحه ماكيافيللي عنوان: «عن القسوة والرحمة: أيهما أفضل الحصول على محبة الناس أم خوفهم»، يوضح أنه ينبغي على كل أمير أن يكون رحيما بشعبه وأن ينبذ القسوة، لكنه في الوقت نفسه يتحتم عليه أن لا يسيء استخدام الرحمة، فقد تكون القسوة أفضل للصالح القومي بكثير من الرحمة إذا كان الظرف التاريخي يحتمها. فالقسوة إذا كانت تعني النظام والانضباط خير ألف مرة من الرحمة إذا كانت تعني الفوضى والتسيب. يقول ماكيافيللي:

«لقد اعتبر سيزار بورجيا قاسيا، في حين أن قسوته جعلت النظام يستتب في روماجنا، ومنحت شعبها الوحدة، ورسخت أسس السلام والاستقرار في أنحائها. ولو تأملنا هذه الملابسات بتمعن، لأدركنا أنه كان أكثر رحمة من أهل فلورنسا الذين سمحوا بدمار بستويا حتى لا يتهمهم أحد بالقسوة. وعلى هذا الأساس يجب ألا يعبأ الأمير بالحساسيات الناشئة عن القسوة في سبيل الحفاظ على وحدة شعبه وتنامي ولائه له، فسوف تظهر ممارسته وإجراءاته أنه كان أكثر رحمة من أولئك الذين تركوا الفوضى تسري بالدمار في دولهم لأن قلوبهم الرقيقة لم تحسم الأمور، فمهدوا الطريق لسفك الدماء بين مواطنيهم الذين سلبت ممتلكاتهم، وغير ذلك من المصائب والمآسي التي تشمل المجتمع بأسره في حين أن العقاب الذي ينزله الأمير ينصب على بعض الأفراد فحسب».

ويطرح ماكيافيللى سؤالا لا مهرب منه لأى حاكم أو زعيم سياسى: أيهما أفضل أن يكون محبوبا أم مرهوب الجانب؟ والجواب هو أنه فى حاجة إلى الحب والرهبة فى آن واحد. إنها معادلة صعبة لا يقدر على تحقيقها سوى قلة نادرة من الحكام، ولذلك إذا تعذر الجمع بين هذين النقيضين فإن الأكثر أمانا للحاكم أن يهاب ويخشى ويرهب جانبه من أن يحب. ثم يكشف ماكيافيللى عن الجانب المعتم من النفس البشرية حتى يكون الحاكم على بينة بواقعها غير الأخلاقى الذى لا يمكن تجنبه أو تجاهله أبدا بدعوى التفاؤل أو حسن النية أو الظن بها. يقول ماكيافيللى:

« إن الناس بوجه عام ناكرون للجميل، متقلبون لا يظلون على حال واحدة، يطمحون دائما إلى ما ليس فى أيديهم، ويتلهفون على تجنب المخاطر وطلب السلامة بأى ثمن، ولا يتوقفون عن طلب الانتصار وتحقيقه. وطالما أنك قادر على تلبية طلباتهم وتحقيق منافعهم، فهم ملك يديك ورهن إشارتك، وعلى استعداد أن يبذلوا الغالى والنفيس من أجلك عندما يكونون فى حاجة ماسة إليك. لكن عندما يتأكدون أنك لم تعد ذا نفع لهم، فإنهم يثورون عليك لأتفه الأسباب. ولذلك فالأمير الذى يعتمد فحسب على معسول كلامهم دون أن يتخذ احتياطاته اللازمة لإجبارهم على الإخلاص فى عملهم، فإن مصيره هو الدمار لا محالة».

والقيم الأخلاقية عند ماكيافيللى ليست مجرد شعارات سابحة بين السحب الشفافة فى سماء حانية، بل هى تخضع لقوانين الارتباط الشرطى بالظروف الراهنة والضغوط الطارئة والأهواء العابرة، أى أن صفاتها المطلقة والمثالية على المستوى النظرى مرتهنة بالعوامل التى تحيط بها وتتفاعل معها على المستوى التطبيقى والعملى، وخاصة أن الإنسان فى أحوال كثيرة يظهر ما لا يبطن، ويبطن ما لا يظهر. أى أنه يمكن أن يرفع الشعارات المثالية البراقة، وأن يملأ بها الأسماع دوياً وطنيناً لكى تتاح له الفرصة ليرتكب ما يتناقض معها تماما. ذلك أن الانفصال بين المظهر والجوهر كان لعبته المفضلة دائما. ومن هنا كان واجب الحاكم أن يفرق بين ما هو نابع من القلب، وبين ما هو متعلق بطرف اللسان فحسب.

ويستشهد ماكيافيللى بالصداقة كقيمة أخلاقية ومثالية فيقول إن الصداقة التى تشترى بالمال ولا تصدر عن الحب والإعزاز والمثل العليا، هى رهن إشارة من يملك المال الكافى لشرائها، وبالتالى لا يمكن الاعتماد عليها والاطمئنان إليها. وعندما تحين ساعة الجد وتواجه الأزمات الحاكم، فسرعان ما تتراجع هذه الصداقة وتتقاعس عن العمل فى خدمته طبقا لما تتطلبه أهدافه ومصالحه القومية. خاصة عندما يجد من يدعون هذه الصداقة أنه ليس هناك ما يخافون منه أو يعملون له حسابا، فمن السهل عليهم حينئذ أن يديروا الدفة وجهة أخرى لأن مؤشر بوصلتهم مرتبط دائما بمصالحهم الشخصية الراهنة. فالناس لا يتوخون الحذر من توجيه إساءتهم نحو من يحبونه، وفى الوقت نفسه يعملون ألف حساب لمن يخافون منه ويخشون بطشه وعقوبته.

وبرغم أن الحب من القيم الأخلاقية والمثالية التى تمنح الحياة معناها السامى وتجعلها جديرة بأن تعاش، ومن هنا كانت ضرورة الالتزام به، إلا أن ماكيافيللى يرى الحب مرتبطا بسلسلة من الالتزام يسهل على الناس كسرها عندما يجدون أنه قد يعوق تحقيق أهدافهم وإرضاء أنانيتهم وتلبية طلباتهم التى غالبا ما تكون ملحة فى نظرهم. ولذلك إذا أراد الحاكم أن يحفظ هذه السلسلة الذهبية الثمينة من الكسر والتحطيم، فإن عليه أن يقف على قاعدة راسخة من الرهبة التى تحفظ له هيبته فى نظر شعبه. وجرعة من الخوف بين الحين والآخر أو ما نسميه فى مصر بالعين الحمراء، مسألة ضرورية لتسيير دفة الحكم. ولا يعتبر ماكيافيللى هذا الأسلوب نوعا من العسف أو البطش أو الديكتاتورية، بل هو تطبيق لمبدأ الثواب والعقاب الضرورى لتوازن المجتمع ونموه. إن رسوخ صورة الحاكم القادر على إنزال العقوبة بالمسئ والمنحرف، فى أذهان الجماهير، من شأنه أن يجعلهم أسلس قيادا عندما يعيشون فى ظل الخوف من العقاب، واليقين من تسديد الحساب عند انكشاف أمر الإساءة نحو الحاكم الذى يملك مقاليد الأمور بين يديه.

ويصر ماكيافيللى على ضرورة أن يواجه الحاكم حقائق الحياة بحلوها ومرها، وطبائع البشر بإيجابياتها وسلبياتها دون أية مواربة أو خداع للنفس. فالسير على الأرض بكل طرقاتها المتربة والموحلة، وتضاريسها الوعرة والخطرة، بحرص ودراية وحكمة ونظرة ثاقبة، خير ألف مرة من التحليق مع الأحلام والأوهام بين السحب، إذ لابد أن تأتى ساعة يجد الحاكم فيها نفسه وهو يتهاوى على قمم الصخور أو الأمواج التى لا ترحم، فما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع. ومن هنا كانت صراحة ماكيافيللى ومصداقيته عندما يصر على أن يوصى الأمير بالحرص على أن يهاب ويرهب جانبه بأسلوب قد لا ييسر له محبة الشعب، لكنه فى الوقت نفسه يمكن أن يجنبه كراهيته. إنه معادلة صعبة أو توازن حساس دقيق يجعل الرهبة أو المهابة تتعايش بسلام مع عدم الكراهية.

لكن ماكيافيللى لا يترك الحبل على الغارب للحاكم حتى لا تزين له نفسه أنه يستطيع أن يرتكب كل أنواع البطش والعسف والقهر دون رادع، ما دام شعبه أسير الرهبة والخوف. ذلك أن تحقيق عدم الكراهية مرتهن بتجنب الأمير أو الحاكم لكل ما يسىء إلى حقوق الإنسان فى بلده، مثل النهب، وابتزاز أموال الشعب، والاعتداء على الأعراض. وليس شرطا أن يكون هو شخصيا مرتكب هذه الفظائع، إذ أنها يمكن أن تصدر عن بطانته وجماعة المنتفعين بنظامه وحكمه. ومن هنا كانت ضرورة يقظته وحرصه على ردع كل من تسول له نفسه من المقربين إليه أن يتجاوز حدوده. إنها لمصيبة إن كان لا يعلم ما يرتكبه هؤلاء الانتهازيون، ولا شك أن المصيبة تصبح أعظم إذا كان يعلم ويغض الطرف عن أفعالهم. ولذلك يحذر ماكيافيللى أميره من الاستيلاء بدون وجه حق على ممتلكات مواطنيه أو ما يسمى بلغة العصر الحديث «المصادرة» أو «التأميم» أو أيا كان المسمى. ذلك أن الناس ينسون بسهولة موت والدهم، لكنهم لا ينسون فقدان ممتلكاتهم. ولن يعدم الأمير الأسباب والحجج التى يمكن أن يتذرع بها عند الاستيلاء على أموال الرعية وممتلكاتهم، فهى أكثر من أن تحصى وأسهل مما يتصور الكثيرون. لكن مهما تظاهر المواطنون بالرضوخ أو حتى بالقبول، فإن قلوبهم لن تصفو له أبدا،

وسيظلون متربصين به إلى أن تحين الساعة التى يمكن أن ينتقموا فيها منه، فإن موازين القوى تتغير وتتبدل باستمرار مع الأيام، والأمير الحكيم ذو النظرة البعيدة والرؤية الثاقبة هو من يضع كل هذه الاعتبارات فى حسابه، فيأمن بقدر الإمكان شر الكوارث التى يمكن أن تحيق به أو بمواطنيه على حد سواء؛ لأن مصيره مرتبط بهم شاء أم أبى. ومن هنا كانت ضرورة حل المعادلة الصعبة التى توازن بين الخوف والحب، بين الهيبة والألفة، بين الرهبة والشعبية. يقول ماكيافيللى فى ختام الفصل السابع عشر من كتاب «الأمير»:

«يطيب لى أن أختم حديثى فى هذا الموضوع المتعلق بالرهبة والمحبة بقولى: إن الناس يحبون بإرادتهم، لكنهم يرهبون بإرادة الأمير التى تتجلى فى منهجه السياسى وأساليبه فى ممارسة الحكم. ولذلك فالأمير الحكيم هو الذى يعتمد على ما فى حوزته واستطاعته بالفعل، ولا يطمئن إلى ما فى حوزة الآخرين واستطاعتهم، فى حين يتحتم عليه أن يتجنب تفاقم كراهيتهم له على نحو ما أسلفنا وأوضحنا».

هنا تتجلى فلسفة ماكيافيللى العلمية والعملية والواقعية والموضوعية التى ترى أن القيم الأخلاقية هى فى نهاية الأمر أفكار ومبادئ ومثل وسلوكيات وعلاقات بين البشر فى حياتهم اليومية الزاخرة بالصراعات والضغوط والطموحات والإحباطات والآمال والآلام والأطماع التى لا تهدأ ولا تفتر. ومن يتصور إمكان رفع لواء هذه القيم الأخلاقية بمعزل عن هذه الاعتبارات، فهو إما واهم وساذج أو جاهل بطبائع النفوس البشرية أو مدع ومخادع يتظاهر برفع ألوية الفضيلة حتى يخفى حقيقة أطماعه الشخصية.

من هذا المنظور العلمى والعملى والموضوعى، استطاع ماكيافيللى أن يفرق بين أخلاقيات الوعد الذى يقطعه المواطن على نفسه بصفة شخصية مع من يتعامل معهم كأفراد، وبين أخلاقيات العهد الذى يقطعه الحاكم على نفسه بصفة قومية مع القوى والتجمعات والتكتلات التى يتحتم عليه أن يتعامل معها، سواء

أكانت محلية وإقليمية أم عالمية ودولية. ففى الفصل الثامن عشر الذى كتبه تحت عنوان «بأى أسلوب يفى الأمراء بعهودهم؟» يوضح ماكيافيللى أن محيط السياسة بأمواجه المتلاطمة والصاخبة لا يمنح الحاكم أو الأمير فرصة الوفاء بالعهد بالأسلوب البسيط الذى يظنه العامة أو السذج من الناس، فالسياسة لا تعترف بتقسيم المواقف إلى أبيض وأسود، ولكن هناك درجات لا تحصى من الألوان والظلال بينهما. يقول ماكيافيللى:

«كلنا يعلم كم يرهق الأمير ويكلفه كثيرا من المشقة والجهد فى أحيان كثيرة أن يصدق فى وعوده وأن يفى بعهوده. ولا تزال التجارب الحية فى عصرنا تطلعنا على المشاق التى عانى منها الأمراء والحكام، كى يصفهم الناس بالصدق والوفاء. هذا فى الوقت الذى حقق فيه غيرهم المكاسب والانتصارات حين تجنبوا الصدق ولم يحفلوا بالوفاء، بل توسلوا ببعض المكر والدهاء، فأربكوا الخصوم وهزموا من تمسكوا بفضيلة الوفاء».

ولا يعنى ماكيافيللى بهذا التفسير، التحريض على الحنث بالعهد، وانتهاك الوعد، بل يقصد أن المسألة أكثر تعقيدا وتشابكا، وأعمق أبعادا، وأشمل آفاقا لأنها تنطوى على مصائر أمم ومستقبل شعوب. وكان القانون من أعظم الابتكارات البشرية التى تفرق بين الإنسان والحيوان الذى ليس سوى جزء عضوى من قوانين الطبيعة التى تختلف فى جوهرها عن القوانين الوضعية. لكن المشكلة أن البشر لا يرتضون القوانين التى وضعوها. قد يتظاهرون بالسير على نهجها لكنهم كثيرا ما يسعون لخرقها. ولذلك كانت القوة متربصة دائما بالقانون تريد أن تقهره وتدوسه وتتجاوزه بدلا من أن تجعل نفسها أداة عملية لتطبيقه. أو كما يقول ماكيافيللى:

«إن هناك أسلوبين من أساليب القتال والصراع: أولهما بالقانون، وثانيهما بالقوة. أولهما جدير بعالم البشر، وثانيهما حاكم لدنيا الوحوش والحيوانات المفترسة. ولكن الأسلوب الأول، أى أسلوب الصراع فى إطار الشرعية والقانون

يفضى أحيانا إلى نتائج غير كافية أو غير مرضية فى نظر بعض أطراف الصراع، ومن هنا كانت غلبة الميل إلى اتباع الأسلوب الثانى. ومن الضرورى حينئذ أن يعرف الأمير جيدا كيف يتمرس على استخدام أسلوب البشر وأسلوب الوحوش على حد سواء».

ولم يكن ماكيافيللى يؤمن أن هناك بشرا مثاليين، لأن البشرية بطبيعتها تتنافى مع المثالية، ولذلك كان يؤمن بأن هناك بشرا يدعون المثالية لتغطية أغراضهم الدفينة والمريبة والخبيثة. وتبلغ المأساة ذروتها إذا نجحوا فى خداع الحاكم وزينوا له أن القانون هو قوة فى حد ذاته، وليس فى حاجة للجوء إلى القوة المادية لتحويله إلى طاقة فعالة. من هنا كان إصرار ماكيافيللى على مزج القانون بالقوة، لأنه بدونها مجرد حبر على ورق، وهى بدونه مجرد طاقة عمياء وغاشمة يمكن أن تدوس فى طريقها كل القيم الأخلاقية التى تمنح للحياة إنسانيتها. أو ما يسميه ماكيافيللى المزج بين الأسلوبين الإنسانى والحيوانى فى الصراع والنضال، بحيث يبرز أحدهما كلما دعت الحاجة إليه. ولا يستطيع أحد ممن يدعون المثالية أن ينكر أن هناك حيوانا كامنا فى كل إنسان، يسيطر على أفكاره ويتحكم فى تصرفاته بدرجة أو بأخرى. ولكى تصبح الحياة محتملة وجديرة بأن تعاش فقد ابتكر الإنسان القانون حتى يقف بالمرصاد للقوة الغاشمة. ولن يقوم بهذه المهمة الحضارية الجليلة إلا إذا كان هو نفسه مسلحا بالقوة اللازمة، ولذلك يتحتم على الحاكم أن يكون واعيا بأساليب تطبيق القانون وفى الوقت نفسه خبيرا فى استخدام شتى أنواع القوة.

هنا تبرز نظرية الثعلب والأسد التى اشتهر بها ماكيافيللى. فإذا كان من المحتم على الأمير أن يعرف بإتقان كيف يوظف الأسلوب الحيوانى، فمن الواجب عليه أن يختار من مملكة الحيوان نموذجين هما الثعلب والأسد. فالأسد لايستطيع أن يحمى نفسه من الفخاخ، والثعلب لا يستطيع أن يحمى نفسه من الذئاب، من هنا كانت ضرورة أن يكون ثعلبا حتى يميز الفخاخ، وأن يكون أسدا

حتى يخيف الذئاب. ومن يعتمدون فحسب على قوة الأسود لا يدركون طبيعة الأشياء، بل إن الحاكم الحكيم لا يستطيع ولا ينبغى له أن يراعى الوفاء بعهوده، إذا أدرك فى لحظة كاشفة أن هذا الوفاء ضد مصلحة شعبه ووطنه. فهو ليس مسئولا عن نفسه فحسب حتى يفعل ما يشاء، بل هو ملتزم بمصير أمته. ومن المعتاد أن تتغير الظروف والمواقف فى بحار السياسة المضطربة، فيصبح العهد الذى قطعه على نفسه فى مرحلة سابقة غير ذى معنى فى مرحلة لاحقة، وربما أصبح مدمرا لوطنه ولشعبه إذا ما أصر على الوفاء به برغم الظروف والملابسات الجديدة الطارئة، خاصة إذا كانت دواعى العهود قد نقضت من تلقاء نفسها. ويعترف ماكيافيللى أن هذا المبدأ يصبح خاطئا بل جريمة فى حق البشرية إذا كان الناس كلهم أخيارا وأطهارا. لكن بما أنهم ينطوون على شر كامن فى طبيعتهم، فهم لا يحفظون عهودهم نحو أميرهم أو حاكمهم. والثقة لا يمكن أن تكون من طرف واحد، فهى قيمة أخلاقية لابد أن تكون متبادلة بين الطرفين.

ويوضح ماكيافيللى أن التاريخ زاخر بأمثلة لا حصر لها من معاهدات ألغيت عندما شعر أحد طرفيها أو أطرافها بأنه لم يعد فى حاجة إليها، أو أنها تقيد حركته فى سباق محموم لابد أن يكسبه. وكذلك وعود نقضت لإدراك معظم الحكام أن المنتصر الحقيقى هو من يستطيع أن يلعب دور الثعلب. ونظرا لأن الساسة لا يحبون أن يكشفوا عن نواياهم الحقيقية، فإنهم يحرصون على التفنن فى الادعاء الكاذب والفصل الكامل بين المظهر والجوهر. وخاصة أن دروس التاريخ تؤكد أن معظم الناس لا يملكون الوعى الكفيل بتعرية هذه الألاعيب والمؤامرات والخدع والحيل، ولذلك يقنعون بتقبل ما يجرى أمامهم على علاته.

ويتبلور الجانب الأخلاقى فى مفهوم ماكيافيللى لأصول الحكم عندما يربأ بالحاكم أن يتصف بصفات الخبث والخداع والمناورة واللف والدوران والانتهازية والتلون والمراوغة الثعلبية كجزء لا يتجزأ من فكره وسلوكه، ولكن من الضرورى له أن يبدو وكأنه يملكها حتى يعمل الآخرون له ألف حساب. بل إن

ماكيافيللى يذهب إلى أبعد من ذلك فيؤكد أنه إذا أصبحت هذه الصفات جزءا لا يتجزأ بالفعل من منهجه السياسى الدائم، فإنها لابد أن تضره فى النهاية، شأنه فى ذلك شأن اللاعب بالنار الذى لا يتوقف عن اللعب بها ليستريح ويستجمع قواه حتى لا تحرقه.

وينطبق هذا المنهج أيضا على الصفات الإيجابية النابعة من القيم الأخلاقية مثل الحب والصدق والرحمة والعطف والنقاء والفضيلة. فلابد أن يبدو الحاكم للناس رحيما، أهلا للثقة، عطوفا، خاليا من الرذائل، متدينا، بل أن يكون كذلك بالفعل، لكن بشرط أن يكون عقله مركبا بطريقة خاصة تجعله قادرا، إذا ما دعت الضرورة لذلك، على أن يكون قاسيا، مراوغا، خبيثا، متربصا بخصمه للإيقاع به. وأن يكون الانتقال من صفة إيجابية إلى صفة سلبية مدروسا ومبررا أمام شعبه، أى يملك المرونة الكافية التى تمكنه من محاربة الخصم بأسلحة أمضى من أسلحته. لكن ماكيافيللى يسارع ليؤكد مرة أخرى على ضرورة تخلى الحاكم عن هذه الأسلحة بمجرد الانتهاء من دورها حتى لا تتحول إلى منهج ثابت قد يجلب له الوبال بعد ذلك. فلابد أن يتمسك الأمير بالقيم الأخلاقية بقدر استطاعته وألا يلجأ لغيرها إلا للضرورة القصوى.

ويرى ماكيافيللى فى النفاق آفة كفيلة بهدم كل القيم الأخلاقية التى يمكن أن يتحلى بها الأمير. وهى آفة منتشرة فى بلاط الملوك والحكام والأمراء عبر التاريخ، انتشارا يكاد يشكل قاعدة راسخة لا تقبل الاستثناء. وهؤلاء المنافقون والمتملقون فى رأى ماكيافيللى هم الوباء الحقيقى الذى تصدر عنه معظم الكوارث التى تحيق بسادتهم الحكام. وبرغم أن مشكلتهم مشكلة عويصة ومتشعبة ومعقدة، فإن حلها بيد الأمير الذى يستطيع أن يجد فى الفصل الثالث والعشرين من كتاب ماكيافيللى منهجا نظريا وعمليا يكشف به كل حيل المنافقين وألاعيب المتملقين حتى لا يصير ألعوبة بين أيديهم إذا ما ترك لنفسه العنان للاستمتاع بمعسول كلامهم. يقول:

«لست أريد أن أغفل موضوعا مهما وخللا يجد الأمراء صعوبة فى وقاية أنفسهم منه إذا لم يتصفوا بالحصانة فى حسن الاختيار. هؤلاء هم المتملقون الذين يغص بهم كل بلاط. فالبشر إلى حد كبير يرضخون للغرور الذى يؤدى بهم إلى خداع أنفسهم، إذ أن مناعتهم ضد هذا الوباء ضعيفة للغاية. ومن حاول منهم وقاية نفسه بالتحصن ضده، جازف بامتهان نفسه. فلا سبيل إلى اتقاء شر المتملقين إلا إذا أدرك الناس أنهم لا يغضبونك إذا هم صارحوك بالحقيقة. غير أنه إذا جاز لكل إنسان أن يصارحك بالحقيقة، ضاعت هيبتك. ومن هنا وجب على الأمير الحصيف أن يلجأ إلى طريق ثالثة، فيختار لدولته حكماء الرجال الذين يجب أن تقتصر عليهم حرية التقدير فى مصارحته بالحقائق، لكن بشرط ألا يتجاوزوا الموضوعات التى يسألهم عنها، وألا يتناولوا أى موضوع آخر من عندياتهم. ولكن يجب عليه أن يسألهم فى كل شىء وأن يستمع إلى أقوالهم ثم ينفرد بنفسه ليتخذ قراره بطريقته الخاصة. كما يجب عليه فى تصرفه مع هؤلاء المستشارين أن يجعل كلا منهم - على حدة - يشعر أنه كلما ازدادت صراحته ازداد قربه من الأمير، أما فيما عدا هؤلاء فلا ينبغى للأمير أن يسمع لأحد، بل يجب عليه أن يلتزم بما اتخذ من قرارات ينفذها بلا تردد. ومن خالف هذه القاعدة إما أن يسقط بسبب المتملقين بعد أن يضل طريقه، أو يكثر تردده وذبذبته بين مختلف الآراء فتضيع مقاليد الأمور من يديه، وهو ما يحط قدره أمام الناس».

ويتجلى حرص ماكيافيللى على القيم الأخلاقية التى تشكل النغمة الأساسية فى معظم كتاباته، فى تفرقته بين مفهوم القوة ومفهوم المجد. ففى الفصل الثامن من كتاب «الأمير» يقوم كعادته بتحليل أحداث التاريخ وشخصياته المؤثرة فى مساراته لاستخراج القوانين التى تحكم حركته والعبر الأخلاقية التى قد تكون مطمورة تحت وطأة أحداثه. فيقص علينا كيف بزغ نجم أجاثوكليس الصقلى من بين علية القوم ليصل إلى عرش سراقوسة، وهو الذى نشأ من حضيض المجتمع وقاعه. كان ابنا لأحد صانعى الفخار، ولم يعرف فى صباه وشبابه المبكر سوى البؤس والتعاسة، فاقتنع بأن الخير ضعيف وغير قادر على أن

يمنح أحدا حقه فى حياة كريمة، وأن سلاح الشر هو الذى يرهبه الجميع، وهو الذى يجب أن يتمسك به، مستخدما فى ذلك كل ما أوتى من قوة عقلية جبارة لا تعرف سوى المكر والدهاء والخبث والخديعة.

وقد برزت هذه الطاقات والإمكانات عندما انضم إلى الحامية العسكرية، فتدرج فى مناصبها بسرعة كبيرة مما ضاعف من ثقته فى قدراته الكفيلة بوضعه عنوة على عرش سراقوسة دون انتظار للخطوات الدستورية المعمول بها فى الجمهورية فى ذلك الوقت. وكان يمكن بشىء من الصبر أن تصل به إلى دست الحكم. لكنه لم يكن صبورا بالقدر الكافى، فاتفق مع هاميلكار القرطاجنى الذى زامله فى غزو صقلية ليأمن جانبه، ثم استدعى مجلس الشيوخ فى سراقوسة بحجة استشارة أعضائه فى أمور حيوية تتعلق بالجمهورية، لكنه فى الواقع كان قد دبر لهم مكيدة اغتيالهم جميعا. وبعد التخلص منهم أعلن نفسه أميرا دون أى اعتراض من المواطنين. وهذه الخطة الخبيثة الجهنمية تكررت فى التاريخ مرات عديدة فى مختلف العصور والبلاد، وتكاد فى كل مرة أن تكون بحذافيرها. ففى مصر مثلا افتتح محمد على الكبير حكمه بمذبحة القلعة الشهيرة التى دعا إليها أمراء المماليك ليجهز عليهم ويخلو له المجال بعد ذلك.

وقد تعجب محمد على نفسه لتطبيقه نفس الخطة التى وردت فى كتاب «الأمير» قبل أن يطلع عليه، مما يدل على أن أخلاقيات الغدر والخبث والدهاء والتربص والخداع واحدة عبر العصور نتيجة لطبائع البشر وقوانين السياسة التى لا تتغير. ومن المعروف تاريخيا أن اهتمام محمد على الكبير بكتاب «الأمير» لم يقل عن اهتمام أى من حكام أوروبا السابقين أو المعاصرين له. وليس ذلك بأمر غريب على حاكم ناجح مثل محمد على الذى قال كارل ماركس عن مصر فى عهده أنه «الجزء الوحيد القادر على الحياة فى كل الامبراطورية العثمانية». فبرغم أنه لم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى سن متأخرة من عمره، فإنه كان يهتم بكل ما يتعلق بنظم الحكم، مما شكل واحدا من أسرار نجاحه الكبير.

فبعد أن عرف أهمية «الأمير» عن طريق الدبلوماسيين الأجانب، كلف الأب روفائيل أنطوان زاخور، الذى عمل مترجما للفرنسيين أيام حملتهم على مصر ثم مع محمد على الكبير فى عهده، بترجمة «الأمير» إلى العربية، التى أتمها ما بين عامى ١٨٢٤م و١٨٢٥م لأن محمد على ذكر بنفسه أنه: «جد مشوق لمعرفة ما يتضمنه هذا الكتاب».

أما أجاثوكليس الذى أعلن نفسه أميرا على سراقوسة بعد مذبحة مجلس الشيوخ، فقد تعرض للغزو والحصار مرتين من جيوش قرطاجنة لكنه استطاع أن يدافع عن إمارته، واستطاع أيضا أن يغزو بجزء من قواته بعض بلاد شمال أفريقيا، وأن يعود منها لرفع الحصار عن إمارته، ويحرج القرطاجنيين لدرجة أنه اضطرهم إلى التحالف معه والاعتراف له بالانفراد بحكم صقلية. ويؤكد ماكيافيللى مفهومه العلمى والعقلانى والواقعى لأصول الحكم من خلال تحليله لخطوات أجاثوكليس السياسية والعسكرية، فيقول إنه ليس هناك مجال لحظ، بل حنكة وتدبير وتخطيط ودراسة ترتب عليها تدرج فى المراتب العسكرية، وقهر للصعوبات التى أحاطت بعرش الأمير اعتمادا على شجاعته وإقدامه وحكمته وعقله السديد. لكن ماكيافيللى يعود إلى نغمته الأخلاقية المفضلة التى تصر على أن اغتيال الرجل لمواطنيه لا يمكن أبدا أن يعد من الفضائل، ذلك أن تصرف أجاثوكليس على هذا النحو كان خاليا من الإخلاص، منتهكا للرحمة، منافيا للدين. يقول ماكيافيللى:

«بهذه الأساليب يمكن للإنسان أن يصل إلى القوة ولكنه يستحيل أن يصل إلى المجد. وإذا كانت فضائله المتمثلة فى شجاعته فى مواجهة الأخطار، وعظمة روحه المتمثلة فى التغلب على المصاعب، لا تجعله أقل مرتبة من القادة الناجحين، فإن قسوته البربرية وانعدام الإنسانية فيه لا تجعل منه، بحال من الأحوال، واحدا من القادة المبجلين الذين يحتفظ الناس لهم بقيمة تبقى على مر الزمان».

أى أن ماكيافيللى يربط المجد الحقيقى بالقيم الأخلاقية والإنسانية ربطا عضويا، فهى شرط أساسى وخاصية جوهرية فيه، وبدونها يتحول إلى مجرد قوة غاشمة مثل قوة الوحوش فى الغابة. ولا يتبقى من الحكام والقادة فى التاريخ سوى الصورة التى صنعوها لأنفسهم فإما أن تكون صورة زاخرة بالقوة والمجد أو بالقوة والغدر، وشتان بين الصورتين. أما صور ضعاف الحكام الذين جرفهم التاريخ فمصيرهم سلة المهملات. ولذلك كان الهم الأكبر لمعظم الحكام عبر العصور هو الحفاظ على صورتهم فى أذهان الجماهير حتى يستأثروا بأكبر قدر ممكن من المدح وأقل قدر ممكن من الذم، وذلك بصرف النظر عن مدى تطابق الصورة مع الأصل. ففى الفصل الخامس عشر من كتاب «الأمير» وعنوانه «عن أسباب مدح وذم الرجال، خاصة الأمراء منهم» يلقى ماكيافيللى أضواء ساطعة على المعضلات الأخلاقية التى تعتور طريق الحاكم. وهى معضلات يصعب حلها فى معظم الأحايين نتيجة للمفارقة الصارخة بين ثوابت القيم الأخلاقية التى لا تقبل التغيير أو التجزئة أو التلوين وبين متغيرات النفس البشرية بكل تقلباتها وانقلاباتها وشطحاتها وغرائزها الوحشية، وأطماعها التى لا تشبع أبدا، وألغازها التى يصعب حلها أو تفسيرها. ومن يتصور غير ذلك فهو إنسان يعيش فى عالم من صنع أوهامه وخيالاته، ولذلك يقول ماكيافيللى:

«لو نحينا جانبا تلك الاعتبارات المتعلقة بالأمير المتمسك بأهداب الخيال، وتكلمنا فحسب عن الأمور الواقعية المرتبطة بالحياة العملية والفعلية، فإننى أقول: إن كل الرجال بوجه عام، والأمراء منهم بوجه خاص، الذين يحتلون أعلى مقام، تتشكل صورتهم أو سمعتهم على أساس سمات معينة تجلب لهم المدح أو تسبب لهم الذم. وهكذا يكون أحدهم من دعاة التحرر ويكون غيره من أصحاب التزمت ورفض التجديد مهما كانت ضرورته، ومهما كانت دواعيه. ويكون أحدهم سمحا يؤمن بحرية الآخرين، فى حين يكون غيره جشعا، مستبدا برأيه، منكرا لحرية الآخرين. ويكون أحدهم قاسيا فى حين يُعد غيره رحيما. ويكون أحدهم حانثا بقسمه متنكرا لوعده، وغيره جديرا بثقة الآخرين به وبكلمته.

ويكون أحدهم مخنثا جبانا، وغيره مقداما مكتمل الرجولة، قوى الروح جريئا. ويكون أحدهم إنسانا، يتحلى بمزايا البشر، فى حين يسلك الآخر بغطرسة وعجرفة. ويكون أحدهم فاسقا داعرا، والآخر عفيفا محتشما. ويتميز أحدهم بالصدق والصراحة، والآخر بالدهاء والمناورة والكذب. أحدهم صعب المراس، والآخر لين العريكة. أحدهم جاد ملتزم بما هو صواب، والآخر مستهتر ونزق ولعوب. أحدهم متدين يخاف ربه، والآخر فاسق أو ملحد زنديق لا يؤمن بعقيدة ولا يتقيد بشريعة.... إلخ. وأنا أعرف يا صاحب السمو أن كل امرئ سيقول: إن الأمير يلزمه أن يتحلى بكل الأخلاق الطيبة التى سبق ذكرها، وأن يتجنب الصفات الشريرة، لكن ظروف حياة البشر لا تسمح بها كلها، ومن الضرورى على هذا الأساس أن يحذر الأمير كل الحذر الفضائح المترتبة على وقوعه فى هاوية بعض الرذائل التى يمكن أن تطيح به من على عرشه. ومن يتأمل هذا الأمر جيدا سيجد أن بعض الاعتبارات التى قد يظنها الناس فى لحظة من اللحظات فضائل، يمكن أن تدمر الأمير لو تمسك بها، فى حين أن التسلح ببعض الرذائل قد يؤدى إلى الأمن والاستقرار والنجاة من المهالك».

هذه الفلسفة العملية والواقعية تسعى بدأب لتحدد خطوات الحكام قبل الشروع فى اتخاذها، إذ تضع فى حسابها كل سوءات النفس الإنسانية والطبيعة البشرية، حتى لا تسير هذه الخطوات فى طرق مسدودة أو متاهات جانبية أو دوائر مفرغة يمكن أن تؤدى بها إلى كوارث غير متوقعة. وهذه هى الحكمة بعينها، ذلك أن النفس أمارة بالسوء لدرجة أن الشر فى مواقف سياسية عديدة يصبح هو القاعدة فى حين يبدو الخير استثناء منها. وهذا التفكير ليس من باب التشاؤم أو الإحباط أو اليأس أو الاستسلام للشرور كى تجرى فى أعنتها، بل من باب المواجهة العلمية والعملية والموضوعية لسلبيات الواقع حتى يمكن اتخاذ كل الاحتياطات الواجبة بشأنها. فالخير فى حاجة دائمة ومتصاعدة للأسلحة التى يمكن أن يحارب بها الشر. إن المعضلة الأخلاقية تنبع من كهوف النفس البشرية المعتمة التى قد يمتزج فيها الشر بالخير فى لحظة واحدة، لدرجة يصعب فيها

فصل هذا عن ذاك. فإذا كان الشر والخير يمتزجان بهذا الشكل فى داخل النفس البشرية الواحدة، فماذا يكون الوضع عندما نخرج من هذا الحيز الضيق إلى حيز المجتمع البشرى الواسع والعريض؟ إن النماذج التى أوردها ماكيافيللى فى المقتطف الذى استشهدنا به هى على سبيل المثال لا الحصر ليدلل على أبعاد الدوامة الأخلاقية الرهيبة التى تستغرق كل من يحاول التنظير للعمل السياسى، كالتنظير الذى قام به ماكيافيللى فى كتاباته خاصة كتاب «الأمير» والذى أدى إلى اتهامه زورا وظلما بتعليم الحكام والساسة أصول الانتهازية والخداع وتبرير الوسائل اللاأخلاقية بالغايات الأخلاقية، فى حين أن كل ما فعله هو وضع أيديهم على القوانين التى تحكم أصول اللعبة السياسية بكل سلبياتها وإيجابياتها على حد سواء. فالحرص واجب دائما لأن الخطر متواجد دائما، واليقظة الواعية هى شرط أساسى وضرورى للأمن. يقول ماكيافيللى:

« ينبغى للأمراء أن يتجنبوا قدر المستطاع الخضوع لإرادة الآخرين وهواهم.... كما يحق لنا القول بأنه لا يمكن لدولة أن تزعم أنها تتبع سياسة آمنة ومضمونة، كما لا يمكن أن تزعم أنه يستحيل الثقة بالدول الأخرى. إننا نجد هذه التناقضات فى الحياة العادية. نحل مشكلة لنواجه أخرى. لكن البراعة والكياسة إنما تتمثل فى قدرتك على فهم طبيعة المشكلات واختيار أقلها ضررا باعتبارها الأفضل».

وهذا التوجه الأخلاقى عند ماكيافيللى يسرى بعمق أيضا فى كتابه «أحاديث عن ليفيوس» الذى عرف فى العربية باسم «المطارحات»، وإن لم يشتهر شهرة كتاب «الأمير»، وهو عبارة عن تعليقات وشروح وتفسيرات للسنوات العشر الأولى فى المدونة التاريخية التى وضعها المؤرخ الرومانى تيتوس ليفيوس (٥٩ قبل الميلاد - ١٧ بعد الميلاد) الذى امتازت كتاباته وتحليلاته بالجدية والموضوعية وتمجيد الأخلاق التى تتمثل بصفة خاصة فى عناصر البطولة والخير والكرم. ولم يسع أبدا إلى تملق أغسطس قيصر الذى قربه منه فى بلاطه؛ وكان مؤمنا أن أفضل أنواع الحكم هو النظام الجمهورى. وكان إعجاب ماكيافيللى به

جزءا من إعجابه بالأخلاقيات التى سادت الامبراطورية الرومانية بصفة عامة وفى مقدمتها الالتزام والجدية والمصارحة والصدق واحترام الوعد وتقديس الوطن والثقة بالنفس وغير ذلك من الخصائص التى تصل إلى درجة الصرامة الأخلاقية. وكان هذا الإعجاب أيضا سببا فى حماس ماكيافيللى للنظام الجمهورى الذى ينقل إرادة السلطة من الحاكم إلى الشعب.

وتكمن أهمية كتاب «المطارحات» فى أنه يشرح لنا تصور ماكيافيللى لنهضة الأمم وانحطاطها من منظور أخلاقى ودينى. فهو يشرح لنا دور الدين، ودور المؤسسة الدينية، ودور القادة، ودور العلوم والفنون والآداب فى رقى المجتمع أو انهياره. يقول ماكيافيللى فى الفصل العاشر من الكتاب الأول:

«إن العار والكراهية هما جزاء محطمى الأديان، ومحطمى الممالك والجمهوريات، وأعداء الفضائل والأخلاق الرفيعة، وأعداء الآداب، وأعداء كل فن آخر ينفع الجنس البشرى ويعلى من شرفه. فهؤلاء هم الزنادقة والطغاة والجهال والتافهون والكسالى والجبناء. ولا أحد من الناس سفيها كان أم حكيما، صالحا كان أم طالحا، لا يمدح من يستحقون المدح ويذم من يستحقون الذم، لو ترك له الخيار فى هذا أو ذاك».

يدلل ماكيافيللى بهذا المنظور الأخلاقى على أن احترام الجمهورية والعمل على سعادة مواطنيها بالعدل والحرية والأمان هو طريق التقدم والاستقرار والازدهار، فى حين أن إقامة الطغيان، ونهب العباد، ونشر التجسس، وإرهاب الناس بالنفى والمصادرات وسفك الدماء وغير ذلك من مظاهر الانحطاط الأخلاقى والتدهور الحضارى هو طريق الانهيار والخراب بالنسبة لأى حكم. ولذلك يحرص ماكيافيللى فى الفصل الثانى عشر من الكتاب الأول من «المطارحات» على أن يضع المبادئ التى تحفظ الدولة من الفساد. وأول مبدأ فى نظره هو المحافظة على قيم الدين ومثله وشعائره. ويبدو من كلامه أنه يحترم كل الديانات التى قدسها الإنسان دون استثناء. فهو لا يقصد ديانة معينة بالذات، وإنما الدين بجوهره السامى الذى يقرب المخلوق من خالقه. ولذلك لا يبدو

من كلامه أنه يتحدث عن الشعائر كمجرد مجموعة من الطقوس، وإنما يقصد البنية الأساسية في كل دين ومثله العليا الكفيلة بالحفاظ على إنسانية الإنسان. فهو يقول:

«إن الأمراء والحكومات الجمهورية الذين يريدون أن يحافظوا على أنفسهم من الفساد، ينبغي عليهم قبل أى شىء آخر أن يحافظوا على شعائر دينهم مبرأة من الفساد، وأن يحترموها على الدوام، فليست هناك دلالة على خراب دولة أوضح من الاستهانة بقدر العبادات الإلهية. ومن اليسير إدراك ذلك إذا عرف المرء على أية قواعد يقوم جوهر الدين الذى يولد به هذا الإنسان، ذلك أن كل دين تقوم أركانه على بنية أساسية وجوهرية خاصة به .... إن واجب من يحكمون الجمهورية أو المملكة هو أن يحافظوا على أسس الدين الذى يتبعونه. فإن وفقوا إلى ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو عسف، أمكنهم فى يسر أن يحافظوا على روح التدين فى بلادهم، وأن يحفظوا بلادهم فى خير واتحاد. وينبغى عليهم أن يهتموا بكل الأحداث التى من شأنها تدعيم روح الدين وترسيخه فى النفوس .... وكلما ازداد حرصهم على استيعاب العلوم الطبيعية وفهمها، ازداد التزامهم بالاهتمام بالأحداث التى تدعم الدين وتبلور جوهره».

والدين عند ماكيافيللى هو جوهر القيم الأخلاقية وركيزتها الأساسية ووظيفته لا تقتصر على الحياة الروحية للأفراد بل تمتد لتشمل كل جوانب الحياة المادية فى المجتمع، والتى يعمل باستمرار على تهذيبها وتنقيتها من كل عناصر البطش والخداع والخيانة وتحقيق المصالح الآنية الذاتية بأى ثمن مهما كان فادحا، وبأية وسيلة مهما كانت غير شرعية. هنا تبرز ضرورة المحافظة على أسس الدين الذى يدين به المجتمع، والعبث بهذه الأسس من جانب الحاكم يؤدى إلى العبث بها من جانب المحكوم. من هنا كانت ضرورة القدوة التى يجب على الحاكم أن يتمثلها ويمثلها أمام الرعية. ولم يكن كلام ماكيافيللى عن «مجد الإنسان»، و«شرف الإنسان»، و«كرامة الإنسان»، وحرية الشعوب، والعدالة الاجتماعية، والحفاظ على الحرية والعدالة والكرامة والأمن والحقوق بالقانون

وبالقـوة المسلحة إذا لزم الأمـر، سـوى اللبنات الأولـى فى أخـلاقـيات جـديدة هـى الأخلاقيات الاجتماعية التى تعد الجانب الدنيوى والعلمانى للأخـلاقيات الـدينية، كالإحسان والتقوى ومخافة الله والعفة والطهارة والزهد ..... الخ.

من هنا كان الدور الأساسى الذى لعبته القيم الأخلاقية والدينية فى أفكار ماكيافيللى. وهو دور لا يمكن تصور فكره وفلسفته بدونه، وذلك على النقيض تماما من الصورة التقليدية والمشوهة التى شاعت عنه عبر القرون والتى سعى كثير من المفكرين والفلاسفة والدارسين الموضوعيين إلى تغييرها أو حتى تعديلها وهذا أضعف الإيمان. وبالفعل تحسنت صورة ماكيافيللى إلى حد كبير، وأصبح اسمه علما على الفكر الإنسانى والعقلانى والعملى الذى بلغ ذروته فى عصر النهضة ولا يزال يسرى بقوة دفعه حتى الآن فى النظريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية. ومع ذلك لا تزال الماكيافيلية تستخدم كمرادف للانتهازية السياسية والخداع الاجتماعى والتآمر الاقتصادى والدعاية الثقافية والفكرية، فى عالمنا العربى الذى يستريح دائما إلى الأفكار القديمة التقليدية التى تلقاها عن الآخرين سواء من داخل حدوده أو خارجها. فهو نادرا ما يُعمل تفكيره لعله يكتشف آفاقا جديدة يستطيع أن يواكب بها العصر الذى يعيشه بالفعل. ولذلك لا تزال فكرته عن ماكيافيللى والماكيافيلية هى نفس الفكرة التى كانت سائدة قبل حوالى قرنين من الزمان فى الغرب الذى تخلص منها تماما.

وقد آن الأوان لكى نصحح بدورنا هذه الصورة المزيفة الشائهة لماكيافيللى، ونحطم القالب الحجرى الذى صببنا فيه أفكارنا عنه. وخير وسيلة للقيام بهذه المهمة تتمثل فى تقصى الأسباب الموضوعية التى أشاعت هذه الصورة عن ماكيافيللى، فلا يعقل أن جملة واحدة فى كتاب «الأمير» تم اقتطاعها من سياقها، يمكن أن تصبح وصمة فى جبينه إلى الأبد وتتسبب فى إهدار سمعته بهذا الشكل. وكثير من الناس لا يعرفون شيئا عن ماكيافيللى سوى أنه قائل هذه الجملة

الشـهـيـرة «الغـاية تبـرر الوسـيلة» . ومع تقـصى الأسـبـاب الموضـوعـيـة والدوافع التـاريخـيـة التى شكلت هـذه الصورة لماكيـافيللى، سيـدرك القـارئ معنـا أنها كـانت أشـمل وأعـمق من مجـرد تفسـير كـتـاباته وأفكاره على مـحـمل معـين ومغـرض. ولذلك آثرنا أن يدور الفصل التالى من هذه الدراسة حول أبعاد الصورة الموضوعية والحـقيـقـية لماكيـافيللى حتى ننـفض عنها الأتربة والأوحال التى حـاول خـصـومـه إلصاقـها بهـا على مر التـاريخ، وحتى نراها فى ضـوء منهج علمى يجنب الدارسين والمفكرين المصـريين والعرب الـوقوع فى أخطاء تاريخـية ومـنهجـية تجـاوزها كبـار الفلاسـفة والمفكرين والدارسين فى الغـرب بصفة خـاصة وفى العـالم بصفة عـامة، وحتى نرد إليه اعتباره الجدير به أيضا.

الفصل الثانى

ماكيافيللى فى مركز الأفاعى

إن من يتقصى الأسباب العديدة التى شوهت صورة ماكيافيللى وسمعته برغم ريادته المبكرة والأصيلة فى علوم السياسة والاجتماع والاستراتيجية والتخطيط، سيجد أن المكانة الرفيعة والشامخة التى حققها كمفكر وفيلسوف عظيم، جعلته عرضة لكل سهام الحاقدين والحاسدين والموتورين من كل حدب وصوب. فسعوا للنيل منه عن طريق إثارة المشكلات ووضع العوائق فى طريقه، وإشاعة الرذائل عنه والطعن فى إخلاصه وتفانيه فى خدمة الآخرين، لدرجة أنهم نجحوا فى نفيه. وكانت محنة النفى من الدروس التى استخلصها فى كتاباته، خاصة كتاب «الأمير»، حين أدرك أن الحاكم كثيرا ما يكون عرضة لتصديق أقران السوء والدس والوقيعة والوشاية، ويظلم بذلك أخلص الناصحين والمستشارين المقربين منه وأغزرهم علما وأكثرهم موضوعية.

وكانت محنة ماكيافيللى قد بلغت ذروتها عندما لم يجد من الأصدقاء المخلصين - خاصة بعد نفيه - سوى قلائل لا يزيدون فى عددهم على أصابع اليد الواحدة، من الذين كانوا على مستوى فكره وعلمه، أو كانت أخلاقهم أرفع وأسمى من أن يسمحوا لأنفسهم بالسقوط فى ذلك الدرك الأسفل. ويأتى فى مقدمتهم المؤرخ الشهير كويجارديني والسياسى الفلورنسى فيتورى. وكانت أخلاقيات ماكيافيللى التى تتسم بالاستقامة والصراحة والجرأة والمواجهة سببا فى إشعال النيران حوله واشتداد الهجمات عليه، لدرجة أن الكاتب الإيطالى المعاصر ريدولفى وصفه فى كتابه «ماكيافيللى وعصر النهضة» بأنه فى صراحته

لم يضاهه أحد من أعلام عصره. ولم تشفع له محاولاته الجادة فى أن يكون مرغوبا قريبا إلى قلوب الآخرين، ولا إخلاصه ووده العميق لأصدقائه، ولا استعداده لعمل أى شىء من أجل خيرهم وازدهارهم، ولا حنانه وعطفه على كل ضحية بريئة ومساندته لها بقدر إمكانه، ولا كرمه فى الصرف على أحبائه وأصدقائه بلا تردد، ولا حرصه على القيم الأخلاقية والدينية مع كل من تعامل معه، ولا تقديسه لحياته العائلية بحيث أسبغ على أولاده الستة حنان الأب المحب ومنح زوجته كل حنان ورعاية وحب، ولا حبه الجم للعمل وإسداء النصائح والخدمات على أحسن وجه.

كانت طموحات ماكيافيللى الشامخة والصادرة عن عبقريته الفذة قد جعلته غريبا فى مجتمع لا يزال يرسف فى أغلال العصور الوسطى، بكل ضيق أفقها ونفاقها وجهلها، فى حين لم يستطع أن يخفى حبه وامتعاضه عن الآخرين. لذلك بدا شاذا فى مناخ كان أغلب مثقفيه لا يعرفون سوى التملق والنفاق، ويتزلفون لكل قوى، مركزا وجاها، وإن كان الأضعف قيمة وفكرا. بل إن سلوك ماكيافيللى الزاخر بالصدق والصراحة والاستقامة والمواجهة كان بمثابة تعرية غير مباشرة لنفاق الآخرين وكذبهم ومراوغتهم وتملقهم، على طريقة «وبضدها تعرف الأشياء». وتبلغ صراحته قمتها عندما يعترف بأنه اضطر ذات مرة لمجاراة المنافقين تجنبا لمتاعب هو فى غنى عنها، لكنه اكتشف أن الطبيعة التى جبل عليها لا تؤهله لمثل هذه الألاعيب والمناورات الرخيصة، فعلق على سلوكه العابر هذا بسخرية لاذعة قائلا:

«منذ زمن بعيد اضطررت إلى عدم التصريح بما أفكر فيه، والتصريح بما لا أفكر فيه على الإطلاق. لكن حدث ذات مرة أن تفوهت بالحق. فوجدت نفسى أغلفه بغطاء من الأكاذيب بحيث صعب إدراك معناه وبلوغ كنهه».

وكانت سخريته اللماحة والعميقة قد عُدت تهمة وجهت إليه من خصومه على أساس أنه يحتقرهم ويقلل من شأنهم بأسلوب خبيث، وذلك رغم أنه اعتاد أن

يسخر من نفسه كلما تطلب الموقف ذلك. فلم تكن هذه السخرية سوى التعبير الصادق والأمين عن الآفاق الفكرية الجديدة التى يتمنى لمعاصريه أن يبلغوها. وخاصة أنه لم يكن يخفى ما كان غيره يخفيه، وإن أخفى شيئا فإنه كان يخفى عبقريته الرائدة وسلوكياته المثالية بحكم طبيعته المتواضعة والوديعة التى تربأ به عن التفاخر والتكبر والعنجهية، مما جعل شخصيته المتكاملة الراقية تبدو للعيان أدنى من حقيقتها. وكان هذا ضمن الدروس المستفادة من حياته العملية والتى سجلها وحللها فى كتاباته على أساس أن الناس تحكم على الآخرين بالمظهر وليس بالجوهر، ولذلك يبدو المظهر الخادع والزائف فى التعامل مع الناس عملة أكثر رواجا وقوة من الجوهر الحقيقى الذى لا يكشف عن بريقه الخلاب.

وكانت الإنجازات والنجاحات المتجددة التى حققها ماكيافيللى سواء فى مجال الفكر السياسى أو العمل الدبلوماسى، سببا فى استمرار تأجج غيرة خصومه منه لدرجة أنهم لم يتركوا نقيصة واحدة إلا وألصقوها به للنيل منه وتشويه سمعته. حتى حياته الخاصة لم تسلم من أذاهم حين اتهموه ـ كذبا ـ بالجشع الذى أغراه بالزواج من ماريا كورسينى الوريثة الثرية والأرستقراطية، فى حين أن تعامله معها بعد الزواج كان تجسيدا حيا لتقديسه للرابطة الزوجية، وكانت زوجته بدورها وفية ومخلصة ومحبة له حتى الرمق الأخير، بحيث أوصى لها بتركته كاملة على أن تنتفع بها هى وأولادهما طوال حياتهم. فقد كان ماكيافيللى زوجا وأبا مثاليا طوال حياته الزوجية التى استمرت ثلاثة وعشرين عاما. وفى كل أسفاره ـ خاصة فى المهام الدبلوماسية التى قام بها ـ كانت رسائله إلى زوجته مشتعلة بالشوق والرغبة المتأججة للعودة سريعا إلى أسرته التى بادلته لهفة بلهفة.

ونظرا لأن ماكيافيللى كان مثقفا ومفكرا كبيرا يقرأ الحياة ويفسر خصائصها وقوانينها كما يقرأ الكتب والدراسات المختلفة، فإن خبرته الحياتية التى كشفت له عن خسة أقرانه ومعارفه الذين دسوا أنوفهم فى حياته الخاصة

لإفسادها، قد أصابته ببعض التشاؤم فكتب فى كتاب «المطارحات» أن «الحسد غريزة متأصلة فى طبيعة الإنسان، وأن شيمة الجنس البشرى عامة هى الميل إلى التقليل من أعمال بعضهم البعض أكثر من الميل إلى الإعلاء من شأنها». لكن هذا التشاؤم لم يؤثر على سلوكيات ماكيافيللى نفسه تجاه الآخرين الذين رفض أن يحذو حذوهم لأن طبيعته كانت تأبى عليه مثل هذه الأخلاقيات، أو كما يقول فى «المطارحات» إنه كان «مدفوعا دائما برغبته الطبيعية فى العمل لخير الجماعة التى يعيش فى وسطها، كهدف فى حد ذاته دون تضييع الوقت والجهد فى الاكتراث بأى اعتبار آخر».

وقد أثبت ماكيافيللى بفكره ومسلكه وحياته العملية أنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح. فعلى الرغم من كل المحاولات المستميتة من معارفه وأقرانه، أو بمعنى أصح خصومه، لتشويه سمعته وصورته، فإن التاريخ قد ألقى بهم جميعا فى سلة مهملاته، فى حين ظل نجم ماكيافيللى متألقا وصاعدا فى سماء إيطاليا على مستوى وطنه، وفكره راسخا وملهما فى معظم المحافل والدراسات السياسية والحضارية على مستوى العالم أجمع. فعلى الرغم من مرور ما يقرب من خمسة قرون على رحيله، فإن النظريات والقوانين التى بلورها فى كتاباته لا تزال تؤثر بشكل أو بآخر فى الاستراتيجيات والسياسات التى يتبعها معظم قادة العالم حتى الآن.

وكما كان حظه سيئا مع معارفه وأقرانه، كان سيئا أيضا مع بعض الأمراء أو الحكام الذين تعامل معهم. فعندما سقط النظام الجمهورى فى فلورنسا عام ١٥١٢، وعادت أسرة ميديتشى إلى الحكم على أسنة رماح القوات الإسبانية الغازية، لجأ حاكمها الجمهورى سوديرينى إلى المستعمرات العثمانية كما تشتت رجال حكمه فى بقاع أخرى. أما ماكيافيللى فقد أبى على نفسه أن يهرب من بلده برغم معرفة آل ميديتشى بجهوده المستميتة فى الحيلولة دون سقوط الجمهورية. وبدأ انتقامهم منه بإبعاده عن وظيفته، وبعد ذلك بشهور، أى فى بداية

عام ١٥١٣م، لفقوا له تهمة الاشتراك فى مؤامرة استهدفت نظام ميديتشى الديكتاتورى الإرهابى، وسجنوه وعذبوه ست مرات، كل مرة كانت أسوأ من سابقتها. وكان صموده مضرب المثل حتى خافوا من أن يتحول إلى بطل قومى، فقرروا نفيه إلى مسقط رأسه فى قرية سانتا كروتشى القريبة من فلورنسا. وكان من الطبيعى أن يبذل آل ميديتشى ما فى وسعهم لتلطيخ سمعته حتى لا يبهر أحدا بفكره الثاقب وشخصيته الآسرة.

لم يتخل ماكيافيللى عن شموخه، ولم يلجأ إلى مساومة ضعاف النفوس والمتسلقين والانتهازيين، إذ رأى فيهم مجرد طفيليات تعيش على جسد الوطن، فظل ينظر إليهم من مكانته الفكرية الرفيعة والسامية، وثقته العميقة بنفسه وفكره، فلا يرى فيهم سوى أقزام عاجزين عن بلوغ الدرجة التى تقف عليها قدماه، ولا يستحقون منه سوى الرثاء والإشفاق لأنهم لم يقوموا بأى دور إيجابى فى الحياة التى ستطويهم وكأنهم لم يكونوا. وقد سجل التاريخ لماكيافيللى أنه لم يتخل عن قيمه الأخلاقية ومثله العليا برغم كل سوءات من تعامل معهم. فلم يفش لأحد أدق أسرارهم ونقاط ضعفهم التى كان يعرفها بنظرته الثاقبة، بل كثيرا ما كان يحاول أن يقدم لهم الخدمات كلما كان فى إمكانه ذلك.

وكان ماكيافيللى مجاهدا أو محاربا من طراز رفيع، لا يعبأ بما سوف يصيبه من طعنات وضربات طالما أنه مقتنع بسمو هدفه، بل إنه لم يكن يعبأ بجبروت الخصم الذى يواجهه، بل كان يصر على تعريته حتى يبدو على حقيقته البشعة أمام الجميع. فمثلا خاض أكثر من معركة مع النبلاء برغم أنهم كانوا سادة المجتمع الذين ينحنى الجميع أمام سطوتهم وجبروتهم. كتب فى الفصل الخامس والخمسين من المجلد الأول من كتاب «المطارحات» يقول:

«إننى أسمى نبيلا كل الذين يعيشون فى البطالة، ومن يحصلون على خير أرضهم دون أن يمارسوا الزراعة أو حتى مجرد الإشراف عليها أو أى عمل آخر. ومثل هؤلاء الناس وباء فى كل مدينة، ولعل الأسوأ منهم هم أولئك الذين يملكون

بالإضافة إلى إقطاعياتهم قلاعا يحتمون بها وقت اللزوم، وأتباعا يخضعون لهم. وينتشر الكثيرون من المنتمين لهاتين الفئتين فى مملكة نابولى، وفى الممتلكات البابوية، وفى روماجنا ولومبارديا. ولا ريب فى أن هذا هو السبب الذى حال دون ظهور أية جمهورية أو حياة سياسية فى هذه البقاع، ذلك أن الذين يولدون فى مثل هذه الأوضاع، يتشربون العداء الشديد لأى شكل من أشكال الحكم المدنى الحر. ولابد أن تتعثر أية محاولة لإقامة جمهورية فى مقاطعات منظمة بهذا الشكل. وإذا ما رغب إنسان فى إعادة تنظيمها، فإن السبيل الوحيد لذلك هو أن يقيم نظاما ملكيا. والسبب فى ذلك يتمثل فى أنه عندما يستشرى الفساد بهذا الشكل فى جوهر السلطة والسطوة، فإن القوانين فى حد ذاتها لا تكفى لنقاء هذا الجوهر والحفاظ عليه. هنا يصبح من الضرورى أن تكون هناك قوة عليا بالإضافة إلى القوانين الموضوعة. وهى القوة التى تكون للملك عادة، وتمنحه السلطان المطلق الذى يمكنه من وقف أى تطرف أو مغالاة ينبعان من طموح من تسول له نفسه هدم بناء الدولة، أو من الإجراءات الفاسدة التى يتخذها أصحاب الحول والطول».

وكان من الطبيعى أن يقف النبلاء أيضا بالمرصاد لماكيافيللى. فهو لا يطالب بسيطرة الملك على أمور الدولة لأنه ينتمى إليهم، بل لأنه الوحيد القادر على إيقافهم عند حدودهم إذا تجاوزوها. فعلى الرغم من إيمان ماكيافيللى بالنظام الجمهورى، فإنه يبدو أنه وجد أن الظروف السياسية فى إيطاليا لم تكن مواتية لإقامة مثل هذا النظام فى عصره، وكان النظام الملكى فى نظره هو أضعف الإيمان، وأفضل بكثير من شراذم الأمراء والنبلاء الذين يحيلون الوطن إلى أشلاء متناثرة نتيجة لتحكمهم فى إقطاعياتهم ومناطق نفوذهم وعصبيتهم. أما النظام الملكى فيملك السلطة المركزية التى تقوم بصمام الأمن فى مواجهة احتمالات الحروب الأهلية بين مختلف الإقطاعيات ومناطق النفوذ. فقد كان ماكيافيللى من رواد الوحدة الإيطالية التى بذل كل ما فى وسعه لتمهيد الطريق لها، ولا بأس أن تكون الملكية المركزية بكل سطوتها الخطوة الأولى نحو هذه الوحدة الوطنية.

وكان عداء ماكيافيللى لرجال المذهب الكاثوليكى نتيجة لوقوفهم ضد كل محاولات الوحدة الإيطالية، مما أضاف إلى معسكر خصومه الذين شوهوا صورته وسمعته قوة لا يستهان بها. ولم يتراجع فى معركته الحامية معهم إذ لم يتهمهم بمعاداة الوحدة الوطنية فحسب، بل اتهمهم بالابتعاد الكلى عن الروح الأصيلة للدين المسيحى الذى أصبح فى أيديهم مجرد شعار براق يشغلون به الناس ليتفرغوا هم لتحقيق مصالحهم وأطماعهم فى الثروة والسلطة والسطوة، بل إنهم أحالوه فى أحيان كثيرة إلى سلاح فعال لتحقيق هذه المصالح والأطماع. وجاء رد بابا روما على آرائه وتوجهاته عنيفا وقاسيا كى يجعل منه عبرة لمن تسول له نفسه أن يتحدى سلطانه. فقد أمر فى عام ١٥٥٧م بحرق جميع مؤلفات ماكيافيللى، كما قررت محاكم التفتيش حرمان تداول تلك المؤلفات التى كانت على رأس قائمة الكتب الممنوعة، أى بعد وفاة ماكيافيللى بثلاثين عاما. فقد كان البابا يظن أن موت ماكيافيللى سيؤدى بطبيعة الأمر إلى موت أفكاره ونسيان الناس لها، لكنه تأكد من أن مرور الأيام يزيدها رسوخا وانتشارا. بل إن البابا بعد ذلك بعامين (١٥٥٩م) أصدر قرارا يقضى بصنع نموذج أو دمية لماكيافيللى ثم إحراقها أمام أكبر عدد ممكن من جمهور النظارة.

بعد ذلك بدأت حملة إعلامية منظمة لتشويه صورة ماكيافيللى وسمعته، تصدرها الكتاب والمؤرخون الذين اتخذوا من أقلامهم أبواقا للبابا، والذين تجاهلوا تماما كل الإنجازات الفكرية والثقافية المبهرة التى حققها فى كتاباته وتحليلاته ودراساته التى تعد من أعظم مكاسب الفكر الإنسانى، وبحثوا عن الثغرات والسلبيات العابرة ، فإذا لم يعثروا عليها فما أسهل أن يخترعوها. فمثلا أخذوا عليه إهداءه لكتابه «الأمير» إلى لورنزو ميديتشى، واعتبروا ذلك بمثابة تملق لأسرة ميديتشى بعد عودتها للحكم، وذلك برغم أن لورنزو ميديتشى كان يحمل من الصفات والإمكانات ما يؤهله ليجعل منه شخصية قيادية بل تاريخية، إذ كان من الطراز الذى يمكنه اتخاذ القرارات وحسمها. وكان هذا كافيا لماكيافيللى لكى يكتشف فيه أميرا نموذجيا تبنى بالفعل ما ورد فى كتاب «الأمير» من سياسات

كان من شأنها إنقاذ إيطاليا من كثير من الحروب الأهلية التى كان من الممكن أن تمزقها شر ممزق.

والآن يشهد التاريخ لماكيافيللى الذى اتهم زورا وبهتانا بالتملق والتزلف والنفاق بسبب إهدائه كتابه «الأمير» إلى لورنزو ميديتشى، أنه رفض رفضا قاطعا أن يخدم المغتصبين الأجانب الذين كانوا يلقبون بالبرابرة فى حين كان الآخرون يتمسحون بأعتابهم. وظل يعلن على الملأ أنه لا يرفض أى عمل أو يتقاعس عن تلبية أى من أوامر الجمهورية، طالما أنه قادر على القيام به من أجل المصلحة العامة لبلاده، سواء بتنوير أذهان الناس بفكره وعلمه وخطبه، أو بإقامة مشروعات عملية تجسد هذا الفكر. كان مستعدا لخدمة بلاده بإخلاص، وظل مرفوع الهامة، شامخ الرأس حتى فى أحرج اللحظات التى مر بها، ولم يرغب أن يعمل إلا «حيثما يكون مفيدا». فمثلا بعد مرور عشر سنوات على محنة النفى التى عاشها، رفض هذا «المتملق» قبول منصب سكرتارية مربح لأحد الكرادلة المهمين فى روما، لأنه لم يشأ أن يتنكر لموقفه المعادى للبابا وبطانته.

ويتجلى شموخ ماكيافيللى ووطنيته الصادقة عندما قرر الوقوف إلى جانب إيطالى واحد هو لورنزو ميديتشى، فى حين كان مصير إيطاليا كلها فى أيدى الغزاة الأجانب الفرنسيين أو الأسبان، وأيضا أصحاب الكلمة فى روما الذين صب هو جام غضبه عليهم دون مواربة أو مساومة. فأين التزلف أو التملق أو النفاق فى موقفه هذا؟ إن المتملق بطبيعته يراهن على الكفة الراجحة لا أن يغامر بالوقوف على الكفة التى تتأرجح نحو الخسارة لمجرد أنها كفة إيطالية. ولم يكن أحد ليلوم ماكيافيللى إذا استند إلى دعم الغزاة الأجانب وحمايتهم، إذ لم يكن هذا موقفا نادرا فى تلك الظروف الصعبة التى كانت تمر بها إيطاليا التى كانت عاجزة عن حماية أعلام الفكر والفن والعلم فيها. ولذلك لم يلم أحد ليوناردو دافنشى (١٤٥٢م – ١٥١٩م) معاصر ماكيافيللى العظيم، عندما لجأ فى أواخر عمره إلى الملك الفرنسى فرانسوا الأول لكى يقضى فى معيته وفى قصر مجاور لقصره آخر

خمس سنوات فى حياته دون أن يجرؤ أحد على تشويه صورته وسمعته كأحد عباقرة الفن التشكيلى والبحث العلمى أيضا. كذلك فعل المفكر الثورى الاشتراكى المثالى الإيطالى كامبانيللا (١٥٦٨م - ١٦٣٩م) مؤلف كتاب «مدينة الشمس»، الذى تحمل تعذيب محاكم التفتيش والسجن على مدى ثلاثة وثلاثين عاما دون أن يساوم أو يتراجع. فلم يجد أخيرا مناصا من اللجوء إلى السياسى الفرنسى الداهية ريشيليو حتى يتمتع برعايته وحمايته. وكان فى إمكان ماكيافيللى، لو أراد، أن يحذو حذوهم وأن ينال أكثر مما نالوا، إلا أنه لم يفعل. فقد رفض هذا الذى اتهموه بالتزلف والتملق، بكل إباء وشمم أن يهجر وطنه للعمل فى البلاط الفرنسى، وأعلن موقفه هذا بصراحته المعتادة حين قال: «إننى أفضل الموت جوعا فى فلورنسا على تخمة المعدة فى البلاط الفرنسى».

لم يترك خصوم ماكيافيللى سهما ساماً إلا وأصابوا به صورته وسمعته. وكان اتهامه بالكفر والإلحاد والزندقة أخطر هذه السهام، وذلك بالضرب على الأوتار الحساسة المشدودة داخل بسطاء الناس الذين يسهل إثارتهم وتكتيلهم ضده، وبالتالى تسهل مهمة أى متعصب أو متطرف مجنون للاعتداء على حياته والتخلص منه. فقد اتهموه بتحريف صحيح الدين عندما طالب بأن تحتوى القضايا الروحية على مضمون سياسى واجتماعى ينير السبيل «لبناء حياة الأمة وخدمة الدولة» على حد قوله، وبأن إصلاح الدولة لا ينهض على تغيير فى النفوس بالوعظ والإرشاد فحسب، بل بتغيير نظم المؤسسات التى تنهض عليها الدولة ذاتها. فلا يمكن النظر إلى الدين بمعزل عن كل العلاقات الاجتماعية اليومية التى تنشأ بين الناس كالحب والحقد والصراع والفن وغير ذلك من مظاهر الحياة التى تحتاج إلى تنظيم مستمر ومتجدد. ذلك أن رسالة الدين لا تقتصر على تمهيد الطريق إلى الحياة الأخرى بل تمتد لتشمل الحياة الدنيا أيضا، وذلك بالتفاعل بين القيم الدينية والأخلاقية والروحية وبين الطاقات المادية والدنيوية والعلمانية، فالإنسان جسد كما هو روح.

لم يكن ماكيافيللى ملحدا أو فوضويا بحال من الأحوال، بل أكد بعض أصدقائه الأوفياء والقلائل أنه لم ينحرف أبدا بعيدا عن صحيح الدين وجوهره الحقيقى، وكان يرى فى الأنبياء ومؤسسى الأديان بصفة عامة الصناع الفعليين للحضارة الإنسانية لدرجة أن دور ومؤسسى الدول والامبراطوريات يتضاءل إلى حد كبير إذا ما قورن بدورهم. كذلك كان حريصا على القيم الأخلاقية فى حياة الأفراد والشعوب، وهو الجانب الذى تجاهله وطمسه خصومه. فمثلا لم يذكر أحدهم تأكيده الصريح فى كتاب «المطارحات» على أن ازدهار الرومان وانتصارهم فى معاركهم إنما نتج إلى حد كبير عن تمسكهم بالفضائل والقيم الأخلاقية. وقد أوضحنا فى الفصل السابق من هذه الدراسة كيف أصر ماكيافيللى فى كتاب «الأمير» بصفة خاصة على ترسيخ القيم الأخلاقية سواء بين الحاكم والمحكوم أو بين المواطن وقرينه فى الوطن نفسه، وذلك برغم أن عصر ماكيافيللى كان عصر المؤامرات والمناورات والأعمال الإرهابية التى انتشرت فى كل أرجاء أوروبا سواء على المستوى الدينى أو الدنيوى، وتحولت القوة والدهاء إلى مفاتيح للنجاح والتفوق بحيث أطلق عليه اسم «عصر الغش والمغامرات». وكانت بطانة البابا التى تتحمل العبء الأكبر من وزر تشويه سمعة ماكيافيللى، قد رحبت بإنشاء مؤسسة الجيزويت الكاثوليكية المتعصبة فى عام ١٥٣٤م، التى أعلنت شعارها الصريح الذى نادى بأن «الغاية تبرر الوسيلة مهما كان». أى أن ماكيافيللى لم يأت بجديد من ابتكاره، بل رصد الواقع وقام بتحليله لرؤيته فى ضوء علمى وموضوعى.

ومن الغريب أن البروتستانت لم يكونوا أقل حماسة من الكاثوليك فى معاداة ماكيافيللى وتشويه صورته وسمعته، إذ اعتبروه «جزويتيا متنكرا»، وذلك بصرف النظر عن التطابق شبه الكامل بين كل من انتقادات البروتستانت وانتقادات ماكيافيللى الموجهة للبابوية فى روما. وكان كتاب «ضد ماكيافيللى» الضخم الذى ألفه البروتستانتى المتحمس جانتييه بالفرنسية عام ١٥٧٦م، أى بعد رحيل ماكيافيللى بأكثر من نصف قرن، على رأس قائمة المؤلفات المبكرة التى

شوهت سمعة ماكيافيللى إلى حد كبير فى البلاد الأوروبية. وهى المؤلفات التى شكلت الصورة الزائفة والشائهة لماكيافيللى، التى أصبحت راسخة وغير قابلة للجدل أو النقاش عند كتاب ومفكرين كثيرين عبر العصور. ومنذ ذلك الوقت تقريبا ظهر مصطلح الماكيافيلية لأول مرة كمرادف للانتهازية والمراوغة والخداع والتآمر والطعن فى الخلف وعدم الاهتمام بالقيم الأخلاقية، وبدأ تداوله على نطاق واسع بسرعة وفى مجالات فكرية وسياسية شتى، لدرجة أن الأعمال المسرحية الأوروبية كانت فى مقدمة الكتابات التى روجت لهذا المفهوم الخاطئ والشائه لفكر ماكيافيللى. وكان للمسرح الإنجليزى ريادة لابد أن نذكرها له فى هذا المجال.

فقد لعب المسرح الإنجليزى فى عهد الملكة اليزابيث دورا كبيرا فى تشويه سمعة ماكيافيللى نظرا لشعبيته الكبيرة بين مختلف قطاعات الجماهير، خاصة تلك التى لا تهتم بالقراءة والتثقيف الذاتى، وتتلقى معارفها من مصادر التسلية والترفيه، وفى مقدمتها المسرح فى ذلك العصر. أما الكتاب والأدباء والمثقفون الإنجليز فقد كونوا فكرتهم عن ماكيافيللى وكتبه من إطلاعهم على المؤلفات التى شوهت آراءه وحرفت أفكاره التى وردت بصفة خاصة فى كتابى «الأمير» و «المطارحات». ففى عام ١٥٧٧م تُرجم كتاب جانتييه «ضد ماكيافيللى» إلى الإنجليزية، فعرفه الإنجليز من خلال هذا الكتاب قبل أن يقرأوا كتب ماكيافيللى نفسه التى ترجمت بعد ذلك، حين ترجم كتاب «المطارحات» عام ١٦٣٦م ثم كتاب «الأمير» عام ١٦٤٠م.

كان من الطبيعى أن تسود الأوساط الثقافية والأدبية فى إنجلترا نفس الفكرة المشوهة والخاطئة عن ماكيافيللى لأن الإنجليز قرأوا ما كُتب عنه وظلمه ظلما بينا قبل أن يقرأوا كتبه هو نفسه. وعندما ترجمت إلى الإنجليزية قرأوها فى ضوء فكرتهم السابقة عليها، وانعكس ذلك التوجه على الكتابات الأدبية والأعمال المسرحية لدرجة أن النقاد رصدوا ٣٩٥ إشارة مشوهة لاسم ماكيافيللى وأفكاره فى عصر الملكة اليزابيث وحده. ونظرا للازدهار الذى كان يتمتع به

المسرح الإنجليزى فى ذلك العصر، فقد تُرجمت مسرحيات كثيرة إلى شتى اللغات مما ساهم فى نشر وترسيخ الصورة المشوهة ذاتها.

وكان ماكيافيللى سيئ الحظ حتى مع الكتاب والأدباء الذين يتفقون معه فى نظرتهم إلى الحياة، ومقاومتهم لسطوة رجال الدين، ورفضهم لسلطة الرقابة التى تخنق حرية التعبير، مثل الشاعر والكاتب المسرحى الإنجليزى الشهير كريستوفر مارلو (١٥٦٤م - ١٥٩٣م) الذى قدم فى مسرحيته «يهودى مالطة» صورة مشوهة عن ماكيافيللى دون أن يطلع على أفكاره مباشرة، فقد ترجم كتاب «الأمير» إلى الإنجليزية بعد نصف قرن من وفاته. ونفس الوضع ينطبق على الشاعر والمسرحى الأشهر وليم شكسبير (١٥٦٤م - ١٦١٦م) الذى تتطابق مضامينه الفكرية مع توجهات ماكيافيللى ونظرياته، خاصة فيما يتعلق بتقويمهما لكل مظاهر الاستبداد والحكم المطلق خاصة، وموقف الإنسان تجاه الحياة بصفة عامة، ومع ذلك لم يسلم ماكيافيللى من هجوم شكسبير على أفكاره فى مسرحية «زوجات وندسور المرحات».

ونظرا لوقوع معظم بلاد الشرق - ومنها البلاد العربية بطبيعة الحال - تحت سيطرة الاستعمار البريطانى والثقافة الإنجليزية، فقد انتقلت إليها نفس الصورة المشوهة التقليدية لماكيافيللى، إذ كانت اللغة الإنجليزية بالنسبة لها النافذة المفتوحة الواسعة التى تطل منها البلاد الشرقية والعربية على ثقافة العالم وحضارته، فتتلقى من خلالها الأفكار والمعارف والعلوم والفلسفات كحقائق راسخة تُحفظ عن ظهر قلب ولا داعى لمناقشتها فضلا عن تفنيدها. وهذا المنهج التلقينى هو الذى رسخ الصورة المشوهة لماكيافيللى فى العقل العربى حتى الآن، فمازلنا نرى الحكام أو المفكرين فى العالم العربى وهم يتبادلون الاتهام بالماكيافيللية، فى حين أن الغرب نفسه الذى صنع هذه الصورة المشوهة قد تخلص منها منذ زمن طويل.

وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الحملة الواسعة والهجمة الشرسة على ماكيافيللى فى القرن السادس عشر إلى تشكيل هذه الصورة المزيفة التى توارثتها

الأجيال وتعاملت على أساسها وكأنها الحقيقة الوحيدة. وقد ساهم فى تدعيم هذه الصورة وترسيخها، أنها لاقت هوى فى نفوس حكام كثيرين وجدوا فيها ذريعة لتنفيذ أغراضهم النفعية والانتهازية بل الشخصية. وبرزت مفارقة عجيبة تمثلت فى أن تأثير هذه الصورة المزيفة فى الفكر السياسى كان أعمق بكثير من تأثير المنهج الفكرى الحقيقى عند ماكيافيللى والذى يحتم الالتزام بالقيم الأخلاقية والدينية بقدر الإمكان، فى حين أن الصورة المزيفة كانت تفصل بين الوسائل والغايات التى يجب أن تتحقق بصرف النظر عن نوعية الوسائل المستخدمة.

وقد أثبت التاريخ أن معظم الذين يتشدقون بمصطلح الماكيافيللية لم يقرأوا مؤلفات ماكيافيللى، خاصة فى العالم العربى، أو فى أحسن الأحوال اقتصروا على قراءة سطحية لكتاب «الأمير» الذى لا يشكل سوى نسبة ضئيلة من مجموع كتاباته المسهبة، وذلك من ناحية الكم، أما من ناحية الكيف فإن «الأمير» فى حاجة إلى قراءة متعمقة ودراسة تحليلية متأنية لسبر أغواره، وذلك على حد قول ج. ر. إليتون فى كتابه «عصر النهضة والإصلاح ١٣٠٠م - ١٦٤٨م» الذى أكد فيه على كل من يريد أن يستوعب «الأمير» أن يقرأه كعلم لا كدعاية، أو كتاب إلين فيدرين «ماكيافيللى» التى أكدت بدورها على ضرورة قراءة «الأمير» أكثر من مرة، «الأولى سطحية، تدفع القارئ إلى كره الكاتب والثانية أدق تمكنه من اكتشاف أفكاره ونواياه الحقيقية».

كان ماكيافيللى ضحية التجاهل المطلق لمؤلفاته أو الجهل المطبق بها مما منح خصومه فرصة تحريف أفكاره ونظرياته إلى النقيض منها إلى حد كبير. لكن مع الأيام أصبحت كتاباته جزءا عضويا وحيويا من تراث الفكر الإنسانى بصفة عامة والفكر السياسى بصفة خاصة، وأدرك المفكرون والكتاب بل عامة المثقفين أيضا أن من يقرأ كتبه، خاصة «الأمير» و «المطارحات» دون أفكار مسبقة، يدرك بدون عناء أنه كان جمهوريا متحمسا لحرية المواطن فى التفكير والتعبير أكثر من كونه مؤيدا لحكم الفرد الاستبدادى كما حاول خصومه أن يصموه. فقد نشأ فى بيت

متحمس للتوجهات الجمهورية حيث كان أبوه من غلاة الداعين لإقامة الجمهورية. ولم يقتصر حماسه على مستوى التنظير بل امتد إلى المستوى العملى التطبيقى حين قدم كل الخدمات الممكنة لوطنه فلورنسا عندما كانت جمهورية وصفها هو نفسه بأنها «حكومة الشعب». ومن خلال إطلاعه الواسع والعميق على تاريخ الدول والأمم، خاصة تاريخ الإمبراطورية الرومانية التى كان يكن لها احتراما وإعجابا كبيرين، تأكد من أن قوة روما وعظمتها كانتا نتيجة لنظامها الجمهورى الذى ينهض على عنصر الكفاءة والخبرة والعلم الذى يملكه الحاكم ويضعه فى خدمة بلده، وليس على عنصر الوراثة الذى يلعب فيه القدر دورا قد يكون سلبيا ومدمرا للغاية. من هنا كان حماس ماكيافيللى لإحياء النظام الجمهورى الذى يضع إرادة الشعب فوق إرادة الحاكم، لدرجة أن جان جاك روسو وصف كتاب «الأمير» بأنه دليل للجمهوريين. وقد تجلى بعد نظر ماكيافيللى عندما أوضح أن نجاح النظام الجمهورى رهن بمستوى وعى الناس ومدى تمسكهم بتلابيب الأخلاق الفاضلة، وإن كان الأمر يحتاج إلى إقامة حكم مطلق إذا استشرى الفساد والتسيب فى كل أرجاء الوطن، حتى يمكنه وضع نهاية حاسمة لكل أشكال الاضطراب والفوضى التى تجلب الكوارث على الشعب كله. أى أن ماكيافيللى كان يطالب بما يشبه إعلان الأحكام العرفية الآن حين تصل الأمور إلى درجة من السوء يستحيل معها حسمها بالأساليب التقليدية.

وكان إيمانه بقدرة الشعب على الإمساك بمقاليد مصيره من ملامح ريادته التى أهملت كثيرا، لأنه كان يعيش فى عصر لا وزن فيه للشعوب المغلوبة على أمرها فى مواجهة بطش الحكام المستبدين الذين تصور بعضهم أنهم ظل الله على الأرض. ففى كتاب «المطارحات» قدم أفكارا سابقة عصرها بحوالى قرنين من الزمان، حين قال إن «العامة والأمراء متشابهون تمام الشبه، وإذا تحتم علينا أن نفضل أحدهما على الآخر، فلا شك فى أن الأفضلية من حق العامة نظرا لما يبدونه من درجة احترام، كثرت أو قلت، للقوانين التى يعيش الفريقان فى ظلها». وفى الكتاب أو المجلد الأول نفسه من «المطارحات» يقول أيضا: «لاشك فى أن هناك

دافعا قويا جعل الناس يشبهون صوت الشعب بصوت الله، نظرا لقدرة الرأى العام على أن يكون دقيقا إلى حد كبير فى دلالاته وإشاراته، مما يرمز إلى أن قوة خفية توحى إلى الشعب مقدما بما سيصيبه من شر أو خير». أى أن ماكيافيللى كان رائدا أيضا فى تقنين الرأى العام الذى نهضت عليه بعد ذلك كل علوم الإعلام والدعاية السياسية. ذلك أن الأغلبية الشعبية قادرة على تجسيد الصالح العام للأمة سواء فى الحاضر الراهن أو المستقبل المحتمل، لأن هذا الصالح هو صالحها هى نفسها وهى أدرى به من الأمير أو الحاكم المعزول فى برجه العاجى أو قصره المرمرى. وهى أيضا حارسة للتقاليد والقيم الأخلاقية لأنه ليس من المعقول أن يدب الفساد فى كل أفرادها دون استثناء، فى حين أنه من المعقول والممكن والمتوقع أن يفسد الحاكم بصفته فردا يخضع لكل أهواء النفس البشرية الأمارة بالسوء. ولذلك كانت الجماهير بالمرصاد دائما لأخلاقيات الحاكم أو كما يقول ماكيافيللى:

«إن وقائع التاريخ وأحداثه قدمت من الأدلة ما يؤكد أن العامة أحسن قدرة على التمييز من الأمير فى موضوع اختيار الحكام، إذ لا يمكن إقناع الشعب مطلقا، بأن من الخير والحكمة أن يختار لأحد هذه المناصب رجلا اشتهر بالخلاعة والأخلاق الفاسدة، فى حين قد يقتنع الأمير، وغالبا ما يقتنع، بإجراء مثل هذا التعيين لغرض فى نفسه».

وقد نادى ماكيافيللى بهذه الآراء الرائدة من منطلق وعيه العميق بالتاريخ الإنسانى ودوره الطليعى فى تطوير علم التاريخ ومعه علم السياسة وعلم الاجتماع، ووضع اللبنات الأولى لعلم الإعلام. أثبت فى هذه المجالات عمقا لم يبلغه غيره، ولعبت آراؤه دورا مهما فى تطوير الدراسات التاريخية ونظرياتها، إذ تجاوز فى بحوثه حدود التفسير البراجماتى والنفعى للأحداث فى وقت مبكر، وشرع فى إلقاء أضواء فاحصة وموضوعية وواقعية على الدولة وقوانينها التى تسير بمقتضاها، أضواء صادرة عن التجربة والتحليل وليس من اللاهوت أو الميتافيزيقا

أو نظـرية لـلحق الإلـهى فى الحكم. كـمـا كـان من أوائـل الـذين آمنوا بحـتـمـيـة الأحداث التاريخية التى تعتمد فى ترابطها على قـانون السـبب والنـتـيجة بصرف النظر عن الإرادة الشـخـصـيـة للمـشـاركين فـيـهـا. فـفى كـتـابه الضـخـم «تاريخ فلورنسـا» يـتـتبع بالتـحليل مـسـارات الصـراع بين الجـمـاهيـر والأرسـتـقـراطية بطول تاريخ إيطاليا، بحيث يضع يده على العوامل المحركة للأحداث التـاريخـية والقوانين التى تحكمها، وبذلك كان يتجاوز المتغيرات الظاهرية إلى الثوابت الكامنة، وتخطى أيضا مؤرخى عصر النهضة لأنه لم يكتب التاريخ كمؤرخ يقتصر دوره على وصف الأحداث والمواقف والشخصيات ومحاولة تحليلها بقدر الإمكان، بل كتب التاريخ كمفكر وفيلسوف سياسى، حتى يعلم أقرانه ومعاصروه أن السياسة ليست مجرد موهبة أو فن أو هواية أو براعة شخصية، بل هى علم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، علم يبلور الإرادة الإنسانية والشعبية فى صناعة الأحداث وتطويرها، وليس رجما بالغيب وانتظاراً لما سوف تأتى به الأيام، وقد يكون فى غير صالح المنتظرين، خاصة إذا كان خصومهم يتمتعون بإرادة واعية بمجريات الأمور.

ولم يكن عبقريا فى مجال الاستراتيجية السياسية فحسب، بل كان على نفس المستوى فى ميدان الاستراتيجية العسكرية. وكتابه «فن الحرب» يشهد على هذه الريادة التى تركت بصماتها واضحة على كبار المفكرين فى مجال الاستراتيجية العسكرية فيما بعد من أمثال كارل كلاوسفتز وليدل هارت وغيرهما. بل أصبحت أقوال ماكيافيللى التى وردت فى «فن الحرب» نوعا من الأقوال المأثورة أو القوانين التى يستشهد بها القادة العسكريون دون أن يدرى بعضهم حقيقة قائلها، مثل قوله عن النصر والهزيمة: «يمحو النصر آثار أكثر الأعمال فشلا، فى حين تجهض الهزيمة أكثر الخطط تنظيما ودقة». وهو القول الذى تردد بعد ذلك فى أشكال مختلفة مثل: «للنصر ألف أب، أما الهزيمة فيتيمة الأب والأم».

كما كان ماكيافيللي أول من قنن المبدأ الذى ينادى بأن أفضل وسيلة للدفاع هى الهجوم، وأن الاستراتيجية العسكرية دفاع عن الوطن سواء فى زمن الحرب أو السلم، وأنك إذا أردت السلام فاستعد للحرب، وأنه لا ينبغى أبدا السماح بالخلل والاضطراب أن يتفاقما لمجرد الرغبة فى تجنب الحرب، لأن الحرب بذلك لا يتم تجنبها، وإنما تتأجل ويتأخر وقت نشوبها فحسب، فى حين يكون ذلك فى غير صالح المتسبب فى إرجاء وقوعها، وأن من يترك الفرصة للآخر كى يقوى نفسه فإنه يعمل على تدمير نفسه بطريقة غير مباشرة، وأن الحرب امتداد للسياسة والسياسة امتداد للحرب، وأن الاعتماد على المرتزقة يخرج بالحرب من نطاق العمل الوطنى إلى العمل التجارى، فلا أحد يحارب معركة غيره، وأن الحاكم هو المسئول الأول عن الحرب ونتائجها، وأن السلام الحقيقى هو سلام الأقوياء أما سلام الضعفاء فهو الاستسلام بعينه، وأن من يدخل معركة لابد أن تكون كل احتمالاتها وتوقعاتها فى حسابه، وأن قراءة معارك التاريخ والاستفادة من دروسها شرط أساسى لأى قائد عسكرى ناجح، وأن القاعدة الاقتصادية التى تمول الحرب لا تقل فى أهميتها عن القدرة التسليحية، وأن الروح المعنوية العالية للجنود هى كسب لنصف المعركة قبل أن تبدأ، وأن حب الجنود لقائدهم يضاعف من عظمة الأداء العسكرى، فليس الأمر مجرد أوامر تصدر لتنفذ، وأن براعة القائد فى التخطيط والتنفيذ ثم تحقيق الانتصار تجعله موضع إعجاب واحترام جنوده وشعبه على السواء، وأن فتح جبهتين فى وقت واحد تشتيت للقوات المسلحة وتخفيض طاقتها لأقل من النصف، كما تصبح الهزيمة متوقعة إذا ما تحالفت الجبهتان ضد خصمهما المشترك، وأن حب الشعب للحاكم أو حب الجيش للقائد عامل أقوى من الحصون والقلاع الحجرية فى الدفاع عن أرض الوطن، وأن من يفضل الحياد مع قوتين متحاربتين حتى يأمن شر القتال، فإن القوة المنتصرة فى النهاية لن ترحمه، وأن دروس الهزيمة خير معلم لإحراز النصر، وأن السلام لا يعنى التواكل والاسترخاء لأنه لا يوجد سلام خالد وأبدى، وستأتى لحظة لابد أن تتغير فيها الظروف، وأن اليقظة الاستراتيجية تحتم الإمساك بعنصر المبادرة

دائمـا، وأن خلق الظـروف المواتيـة والإعـداد لهـا خـيـر من انتظـارها وتوقـعـهـا لأنهـا يمكن ألا تأتى أبدا، وغير ذلك من المفاهيم والمبادئ العسكرية التى قننها ماكيافيللى منذ القـرن السـادس عـشـر، وأصبـحت الآن من بدهيات العـمل العسـكرى، وإن كان بعض القـادة لا يزالون يقـعـون فى أخطاء مـأسـوية حـتى الآن، سـواء عن جـهل أو تجاهل أو سـوء نية لغـرض فى نفوسـهم. وتتجلـى المأساة فى أن نتـيجة مـثل هذه الأخطاء لا تقع على كاهلهم وحدهم بل على شعـوبهم بأسرها، وربما استمر دفع الثمن أجيالا متتابعة، فليس هناك أخطر من الإهمال أو التهاون فى مصائر الأمم.

وقـد جـمع مـاكـيـافـيللى بين التنظـيـر والتطبـيق فى مـجـال الاسـتـراتيـجـيـة العسكرية. وقـد شـهـدت محـاولاته التطبـيقيـة فى عصره الصـعب والمضطرب على وطنيـة صـادقـة وشـجـاعـة نادرة. فعندمـا وجـد التردد والتـقـاعس طريقه إلى نفـوس مـعظم القادة السـيـاسـيين، بما فـيهم البـابا نفسـه، كان مـاكـيافـيللى يتأجج حـماسـا ويصـر على المقاومـة لأن مـصيـر الوطن لا يحـتمل التـردد لحظة واحدة، ويحـرض البابا كليمنت السابع على القيام بالدفاع عن الوطن بكل الوسائل المتاحة والمبتكرة. ولـم يكتف بـهـذا بل بدأ يتنقـل من مكان إلى آخـر، ويكـتب الرسـائل التى انـهـمـرت على كل الأطراف المعنيـة، ويتصل بأصـحاب القـرار محـاولا إقناعـهم دون أن يتطرق الملل أو اليـأس إلى عـزيمتـه، وذلك برغـم حالـته الـصحـيـة التـى لم تكن على مـا يرام نتيـجة لأمراض سابقـة فى فترات المحن التى مر بهـا. فقد نسى كل همـومه وآلامه الشـخـصـيـة، وتحـول إلـى شـعلة تحـاول أن تؤجـج هـمم الآخـرين، فلم يـكن له هـم سوى «إنقاذ البلاد وضمان حريتها» على حد قوله.

وبناء على ثقـافـته الاسـتراتيـجـيـة الواسـعـة والعمـيقـة، قـدم مشـروعين إلى البـابا، أحدهمـا يضع خطة مـتكاملة لتـحصين فلـورنسا ضـد كل الـهـجمـات الممكنة والمحـتملة، والثانى يعمل على تأسـيس جيش شـعبى وطنـى فى توسـكانيا والمناطق البـابوية. وكلما كـان الخطر يدنو من حـدود فلورنسـا، كـان الرعب يدب فى قلوب السـاسـة التقليـديين، فى حين كان مـاكيـافيللى يزداد نشـاطا وتحفـزا وإصـرارا على

شحذ كل الطاقات الكامنة فى الشعب. فسعى إلى تكوين جبهة وطنية من أصدقائه، واشترك بحماس شديد فى تقوية استحكامات فلورنسا برغم الموقف المتخاذل لمعظم المحيطين به، الذين تذرعوا بالموقف الفرنسى على سبيل الهرب من المسئولية، لكن ماكيافيللى عبر عن رأيه بصراحة وعلانية على رؤوس الأشهاد عندما قال: «إن من واجبنا التسلح دون أدنى تأخير وعدم انتظار ما تتخذه فرنسا من قرار». وكان هذا تطبيقا لنظريته التى سجلها فى كتابى «الأمير» و «فن الحرب» على أساس أن القائد الذى يترك قراره لغيره كى يتخذه فلن يلوم إلا نفسه، فلا يتخذ أحد قراراً إلا إذا كان فى مصلحته هو شخصيا بصرف النظر عن مصلحة أى طرف آخر.

لم يكتف ماكيافيللى بكل هذه الجهود المضنية المتواصلة، بل وضع خطة عمل للتنفيذ الفورى الذى يتطلبه الإيقاع اللاهث للأحداث، والظروف المصيرية التى تحتم «اتخاذ قرارات شجاعة، وغير اعتيادية، وغريبة» على حد قوله. ولذلك لم يألُ جهدا فى البحث الجاد المخلص وبلا أى تملق عن «الأمير الجديد» الجدير بحمل المسئولية القومية والمصيرية الحاسمة التى تؤكد للأصدقاء والأعداء معا، أن إيطاليا على أهبة الاستعداد للدفاع عن كرامتها وأمنها. وقد اعترف البابا شخصيا بشجاعة خطة ماكيافيللى وضرورتها للأمن القومى، لكن تردده وأسبابا أخرى متشابكة حالت دون اتخاذ القرار المصيرى.

وبرغم كل الظروف والملابسات الصعبة التى مرت بها البلاد، لم يعرف ماكيافيللى اليأس أو الإحباط أو التردد أو التراجع. وبرغم تقاعس الحكام وترددهم وقصر نظرهم فى مواجهة العدو الإسبانى الذى انتهز هذه الفرصة وتقدم فى الأرض الإيطالية، واقتربت طلائعه من فلورنسا، لم يعرف قلب ماكيافيللى الرعب وسارع بوضع خطة جريئة جديدة للهجوم المباغت على نابولى، وأسر نائب الملك الإسبانى هناك، وتجريد أتباعه وأنصاره من السلاح، ثم الشروع فى الضغط من نابولى على الإسبان ومواصلة مطاردتهم حتى الجلاء الكامل عن الأراضى

الإيطالية. لكن البابا رفض الخطة بأكملها مما ترتب عليه نتائج مأسوية كان من الممكن تجنبها لو وضعت خطة ماكيافيللى موضع التنفيذ. فقد فوجئ البابا بدخول غريمه بومبيو كالونا، روما بمساعدة القوات الإسبانية التى نهبت الفاتيكان، ولم يتمكن البابا من إنقاذ جلده إلا بشق الأنفس. ومع ذلك كان عهد البابا كليمنت السابع هو العهد الذى شهد الخطوة الأخيرة التى مهدت الطريق للهزيمة الساحقة فى العام التالى.

ومع كل ذلك لم يتقاعس ماكيافيللى تحت وطأة المحن التى مر بها، والشيخوخة، والمرض، وهموم الأسرة. فتحول إلى شعلة متأججة بالحماس والشباب والحيوية والعزيمة التى لا تفتر. كان الشباب فى نظره هم أمل إيطاليا ومستقبلها بعد تراجع الكبار وترددهم واستسلامهم المشين للغازى. فاتصل بتجمعاتهم وحرر إليهم الرسائل، كما سعى إلى تكتيل أصدقائه من أهل الرأى والنظرة الثاقبة. وكانت كلماته المتفجرة إليهم تضرب على نفس الأوتار الحساسة والمشدودة داخلهم: «الوطن فى خطر ولا مناص من التضحية بكل مرتخص وغال من أجل الدفاع عنه، ومن النضال حتى النهاية وعدم الرضوخ بأية حال من الأحوال. وبرغم العاصفة الهوجاء التى هبت على فلورنسا، فلابد للسفينة أن تمخر عباب الأمواج المتلاطمة والهادرة».

بهذا الأسلوب الرائع والصراحة المدوية أعلن ماكيافيللى عن رأيه وموقفه فى حين كانت جيوش العدو تقترب من فلورنسا دون عوائق. لقد صاح فى الإيطاليين مناديا بأن السلام هو سلام الأقوياء مرفوعى الرأس وليس استسلام الضعفاء مطأطئى الرأس . والأمير المنشود يعرف متى يحارب ومتى يسالم. أى أن ماكيافيللى، كرائد فكرى أصيل، استطاع أن يجمع بين التنظير والتطبيق. فالنظرية لا يمكن أن تنفصل عن الواقع، لأنها صادرة عنه ومتعاملة معه. وما فعله فى تلك المرحلة المضطربة والقاسية فى تاريخ وطنه فلورنسا، لم يكن سوى تطبيق ما سجله ونظّر له فى آخر فصل من كتاب «الأمير» حيث نادى بتحرير إيطاليا من البرابرة، وعبر عن أمله الحار فى أن يختار الله شخصا لإنقاذها. يقول:

«لو كانت عبقرية القتال وأصول فن الحرب والمواهب العسكرية مفتقدة فى الثورات الإيطالية السابقة فى الإنجازات شبه العسكرية، فذلك راجع إلى أن أساليب القتال القديمة لم تكن على المستوى المنشود من الكفاءة والقدرة. ولم يظهر بين الرجال رجل مبتكر يعرف كيف يبتدع الجديد منها، فليس هناك مجد أروع من بزوغ نجم رجل قادر على ابتكار قوانين جديدة ومعايير قوية لم يعرفها أحد من قبل وعندما تنهض هذه الإنجازات على أسس وطيدة مناسبة، فإنها تجعل منه بطلا جديرا بالاحترام والإعجاب. وإيطاليا اليوم أحوج ما تكون لجميع أنواع إعادة الهيكلة والتنظيم. هنا تكمن أعظم فضائل الرجال، بشرط ألا تكون رؤوسهم خاوية فارغة. انظر بربك كم يتفوق الإيطاليون خلال المسابقات ومنازلات المبارزة ومباريات المصارعة. كم يتفوقون فى قوة البدن، والرشاقة، والحذق، والبراعة، والذكاء. ولكن عندما يصل الأمر إلى شئون الجيوش، تبدو مواهبهم هزيلة وقدراتهم محدودة، وذلك نتيجة لضعف القادة الذين يملكون المعرفة لكن أحداً لا يطيعهم، إذ يعتقد كل شخص أنه يعرف. ولم يخرج من بينهم رجل من العزم والحزم والقوة ما يجعلهم يسلمون له القياد. من هنا ندرك لماذا كان الفشل هو آفة الجيوش الإيطالية خلال الحروب التى نشبت فى العشرين سنة الأخيرة».

بهذا وضع ماكيافيللى - بنظرته الاستراتيجية الثاقبة - يده على أصل الداء الذى كان ينخر فى جسم إيطاليا كالسوس. إنه افتقارها إلى الوحدة والتكتل والصلابة فى مواجهة التحديات. والجيش القوى هو النواة الصلبة التى تجمع شمل الأمة، وتجعل منها نواة أكبر. إن قوة الوطن هى حاصل ضرب القوى التى يتمتع بها كل المواطنين، وإذا كانت هناك ثغرات ضعف - ووجودها شىء طبيعى ومتوقع - فهى ليست قاصرة على الإيطاليين، لأنها سمة إنسانية لابد أن توجد عند الأعداء والخصوم من أمثال السويسريين والإسبان. يقول ماكيافيللى:

«برغم أن الناس يعتبرون أن الجنود المشاة السويسريين والإسبان جنود مفزعون مرعبون، فإن هذا لا يمنع أن لهم عيوبهم ونقائصهم إلى حد أننى

أستطيع وضع طريقة جديدة لتنظيم صفوف الجنود وحشدهم بحيث لا توقف الأعداء فحسب، بل تهزمهم أيضا. فالإسبان لا يستطيعون الثبات أمام فرسان الخيالة، والسويسريون يخافون المشاة الذين يقابلونهم بإصرار على القتال يضارع إصرارهم. وهى الحقائق التى ثبتت صحتها عندما عجز الإسبان عن الصمود فى وجه فرسان فرنسا، فى حين انسحب السويسريون أمام مشاة إسبانيا. وإذا لم يكن المثال الأخير كافيا، فإن معركة رافينا تقدم لنا مثالا أكثر وضوحا، حين هاجم مشاة الإسبان القوات الألمانية التى كانت على نفس المستوى التنظيمى للقوات السويسرية، وتمكن المشاة الإسبان من التوغل فى صفوف القوات الألمانية بفضل تفوقهم البدنى وتروسهم المنيعة. فقد نجح هجوم الإسبان ولم يستطع المشاة الألمان لهم دفعا، ولولا نجدة فرسان الألمان لمشاتهم لكانوا قد أبيدوا عن بكرة أبيهم. وهذا يدل على إمكان ابتكار نوع جديد من تشكيلات المشاة يمكنه الثبات فى مواجهة الخيالة وهجمات المشاة فى الوقت نفسه. ويمكن تحقيق هذا الهدف باختيار أنواع معينة من الأسلحة، وإعادة تنظيم القوات وهيكلتها من جديد. فهذه هى الأمور التى يحقق الأمير بها المجد والشهرة».

كان كل هم ماكيافيللى أن يشحن كل طاقات إيطاليا، وأن يشحذ همم كل أبنائها للتخلص من الاحتلال الأجنبى البربرى الذى وصفه بأنه يحرق خياشيم كل إيطالى. ولذلك طالب الأمير بأن ينهض بهذا العمل الجليل، بكل الشجاعة والإيمان بعدالة القضية، «فيرفع راية الكفاح لاسترداد أرض الأجداد، لتظل عالية فوق أرضنا المحررة» على حد قول ماكيافيللى الذى ترددت أصداء قولته الشهيرة بين تلال إيطاليا وبطاحها: «حبى لروحى لا يرتفع إلى درجة حبى لوطنى». صحيح أن كفاحه المستميت ذهب أدراج الرياح، واستسلمت روما راكعة عند أقدام غزاتها، ولم يتبق أمامه سوى العودة إلى قريته ليقضى الأيام الأخيرة من عمره، بعد أن قضت المحن على البقية الباقية من صحته، لكن الأحداث التى مر بها، والمواقف التى تعامل معها، والمُثل التى ضربها، والقيم التى رسخها، والأفكار التى

أعلنها، والصراحة التى واجه بها الجميع، والتعرية التى قام بها لكل المنافقين، والمتملقين، واللاعبين على كل الحبال، والآكلين على كل الموائد، والراقصين على كل الأنغام، والممسكين بالعصا من منتصفها فى انتظار ظهور الطرف الفائز حتى يسارعوا بالانضمام إليه، كل هذا وغيره كان دروسا خلدها التاريخ من أجل صالح الإنسانية جمعاء.

كانت أفكار ماكيافيللى النظرية وإنجازاته العملية حربا شعواء على كل مظاهر النفاق والتملق والجبن والتردد والتقاعس والمساومة والادعاء والزيف والكذب والرياء والانتهازية والتسلق والاغتياب وغير ذلك من الصفات والتهم التى حاول خصومه والحاقدون عليه إلصاقها به، فى حين أنهم كانوا تجسيدا حيا وعمليا لها. ولكن - للأسف - نجح هذا الوضع المقلوب فى تشويه صورة ماكيافيللى وسمعته، لأنهم كانوا الأعلى صوتا والأكثر عددا، فتبادلوا الأدوار معه بحيث أصبحوا هم المثاليون وحماة الفضيلة والأخلاق الرفيعة، فى حين أصبح هو الانتهازى المفسد لضمائر الناس وأخلاقهم. وهى تهمة قريبة من تلك التى أدت إلى الحكم بالإعدام على سقراط. ولولا أن ماكيافيللى كان محاربا من طراز رفيع، ومناضلا لا يعرف لومة لائم فى الحق، ويستطيع أن يعرى أهداف كل من يحاول مواجهته، لكان من الممكن أن يلقى مصير سقراط، أو يحرقونه حيا كما كانوا يفعلون مع الساحرات وأتباع الشيطان. ولم يكن هذا احتمالا بعيد الوقوع، خاصة أنهم اعتبروه تجسيدا حيا للشيطان نفسه وليس مجرد واحد من أتباعه.

ومر الزمن واستعاد التاريخ قوته التصحيحية المعتادة، ليبرز على صفحاته من الفلاسفة والمفكرين والعلماء من أنصفوه، بل وتأثروا به. فقد أثر ماكيافيللى فى الفكر السياسى بصفة خاصة والإنسانى بصفة عامة، بل إن هذا الأثر كان يزداد عمقا ورسوخا وتشعبا مع الأيام. ومع ذلك استغرق رد الاعتبار لماكيافيللى وقتا طويلا نظرا للملوك والأباطرة والحكام والأمراء والقادة الذين اقتطعوا من سياق كتاباته ما اتخذوا منه حججا وذرائع لتنفيذ سياساتهم الانتهازية والنفعية،

هذا فى الوقت الذى أصروا فيه على صب لعناتهم عليه حتى يلعبوا الدور التقليدى للمثاليين المزيفين. ونظرا لأن صوتهم كان أعلى من صوت الفلاسفة والمفكرين والعلماء الذين ردوا الاعتبار لماكيافيللى، فقد استمرت الصورة المشوهة والزائفة له فى أذهان العامة بصفة خاصة. لكن مع ازدياد الوعى وانتشار الثقافة، تلاشت هذه الصورة بالتدريج، لكى يبزغ مكانها نجم ماكيافيللى كمؤرخ عظيم، ومفكر سياسى واجتماعى ونفسى من الطراز الأول، ومنظر استراتيجى وعسكرى ترك بصماته واضحة على مسيرة العقائد العسكرية حتى الآن. ولذلك آثرنا أن نخصص الفصل التالى من هذه الدراسة لأثر ماكيافيللى فى الفكر السياسى بصفة خاصة والإنسانى بصفة عامة، سواء على المستوى التنظيرى للفلاسفة والمفكرين والعلماء أو على المستوى التطبيقى للأباطرة والملوك والحكام. فنحن فى العالم العربى لا نزال فى أشد الحاجة لإدراك الأبعاد الحقيقية والمضيئة لصورة ماكيافيللى التى طمستها طويلا آراء خصومه والحاقدين عليه فى أذهاننا التى لم تدركها إلا من خلال كتاباتهم المغرضة وهجماتهم الشرسة. فقد آن الأوان لنرى هذه الصورة على حقيقتها دون وسطاء أو مفسرين مغرضين لأنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح.

الفصل الثالث

قواعد اللعبة السياسية

أثبت الفكر الإنسانى أنه يملك فى جوهره قوة تصحيحية تعدل دائما من مساره إذا ما حاول المغرضون أو الانتهازيون أو المتآمرون أو الأفاقون الانحراف بهذا المسار بعيدا عن الأهداف الإنسانية النبيلة التى ينشدها، أو تزييفها وتصويرها بالشكل الذى يناسب أغراضهم الخفية. وحالة ماكيافيللى كانت خير شاهد على هذه الحقيقة أو هذا القانون، ذلك أن جميع الجهود الخبيثة والتحريفات المدسوسة لإنجازاته ظلت عاجزة منذ البداية عن حجب حقيقة هذا المفكر الرائد عن أعين الفلاسفة والعلماء والمفكرين والمثقفين الموضوعيين الذين قرأوا له. وفى الواقع فإنه يندر وجود مفكر عظيم تناول اسم ماكيافيللى وأفكاره وإنجازاته بغير التقدير والاحترام والإعجاب. صحيح أن أصواتهم كانت خافتة فى بدايتها نظرا للضجيج الذى افتعله خصومه ضده، لكن هذه الأصوات ازدادت وترسخت مع الزمن حتى أصبح لها القدح المعلى فى النهاية، وأن لها أن تكون كذلك فى عالمنا العربى.

بعد رحيل ماكيافيللى بما يقترب من قرن، قام الفيلسوف والعالم ورجل الدولة الإنجليزى الشهير فرانسيس بيكون (١٥٦١م - ١٦٢٦م) بدراسة مؤلفات ماكيافيللى وتحليلها بإمعان وموضوعية، فوجد فيها منهجا متكاملا للحكم والإدارة والقيادة والسياسة. بل إن المنهج الاستقرائى الذى اشتهر به بيكون كان بوحى من اطلاعه الواسع والعميق على كتابات ماكيافيللى وأفكاره، لدرجة أن كثيرين من المؤرخين يعتبرون ماكيافيللى مبتكرا ورائدا للمنهج الاستقرائى

وليس فرانسيس بيكون. فقد استطاع ماكيافيللى توظيف منهج الاستقراء القائم على التعميم، الذى يحكم على الكل بما يوجد فى بعض أجزائه. وهو الاستقراء الذى نهض عليه المنهج التجريبى الذى كان أحد المناهج الفلسفية والعلمية التى طورت الفكر الإنسانى كله. فقد كان ماكيافيللى ينتقل من الواقعة أو الحدث التاريخى إلى القانون الدائم الذى يحكمه ويؤدى إليه، ومما عُرف فى زمان أو مكان معين إلى ما هو صادق وثابت دائما وفى كل مكان. فقد كانت كل كتابات ماكيافيللى بمثابة بحث عن القوانين التى تحكم الظواهر السياسية والاجتماعية والإنسانية بصفة عامة.

لكن لابد أن نسجل لفرانسيس بيكون ريادته فى إعادة الاعتبار إلى ماكيافيللى فى زمن كان وليم شكسبير وكريستوفر مارلو وغيرهما من أدباء الإنجليزية لا يرون فيه سوى الصورة الشائهة والظالمة التى ألصقها خصومه به. فقد رفض بيكون أن ينضوى ضمن روح القطيع، ووظف نظرته التحليلية وفكره الثاقب فى إلقاء الأضواء الموضوعية على فكر ماكيافيللى، فكان من أوائل الذين وضعوه فى مكانه الصحيح ومكانته المرموقة على خريطة الفكر الإنسانى.

ومع بداية عصر التنوير، والبحث عن الهوية القومية الأوروبية، وترسيخ المنهج العقلانى، أشاد أبرز فلاسفة العصر ومفكروه بريادة ماكيافيللى. فى مقدمة هؤلاء يأتى الكاتب والمؤرخ والفيلسوف الفرنسى فولتير (١٦٩٤م - ١٧٧٨م) الذى وضع يده على جوهر إنجاز ماكيافيللى حين قال عنه إنه لم يرض أبدا بالوقوف عند المظهر الذى يكون فى معظم الأحيان خادعا ومزيفا، والذى يقتنع به كل الذين اعتادوا عدم إعمال فكرهم وتقبل ما هو أمامهم على علاقته. كان ماكيافيللى حريصا دائما على إعمال فكره وتحليل كل الأسباب التى أدت إلى المظاهر المسيطرة على الحياة العامة، وذلك وسط أناس تقليديين لم يهتموا كثيرا بالإجابة عن سؤالين مهمين وخطيرين يبدأن بكلمتى: «لماذا؟» و«كيف؟». فى حين كانت حياة ماكيافيللى سلسلة متصلة من إثارة التساؤلات ثم البحث الدءوب بل المحموم عن إجاباتها.

أمـا المفـكر ومـؤلف الموسـوعـات الـفـرنسى الشـهـيـر ديدرو (١٧١٣م - ١٧٨٤م) فـقد أثنى عـلى ماكـيافيللى ككـاتب منهجى فـى كتـابيـه «الأميـر» ، و«فن الحرب» ، وككـاتب موسوعى فى كـتابيـه «المطارحات» و «تاريخ فلورنسا» . ذلك أن كل هذا الإنجاز الفكرى العـميق والموسوعى لم يكن لـيتأتى لماكـيافيللى لـولا ثقافـته الموسـوعية التـى هضـمـها تماماً بحـيث استطاع تحليلهـا وتقنينها، فـلم تعد مـجرد حـصـيلة ضـخـمـة من المعـارف والمعلومـات بل تمنهـجت فى منظور مـحـدد لتـاريخ العصر وأحداثه بصفة خاصة، والتاريخ الإنسانى بصفة عامة.

أمـا الـفـيلسـوف والأديب والناقـد الموسـيـقى جـان جـاك روسـو (١٧١٢م - ١٧٧٨م) فقـد ذكره بعظيم الاحـترام والتبـجيل فى الجـزء الثالث، الفـصـل السـادس من كتابه الشـهير «العقد الاجتماعى» حين قال:

«كان مـاكيـافيللى يتظاهـر بإعطاء دروس للملوك لتـعليمـهم وتوعيـتهم، فى حين أنه كان يـعطى دروسا عظيـمة للشـعـوب. إن «الأميـر» هـو كتاب ودلـيل أنصـار الجمهورية، ومـا اختاره مؤلفه المكروه يدل بوضـوح على نية الكاتب الخـفية، كذلك فإن الحظر الذى أصـدره بلاط روما على نشـر كتابه، له دلالتـه، إذ أن المؤلف يصف هذا البلاط دون لبس أو غموض».

كان مـاكيافيللى مُعـلما عظيما فى نظـر روسـو، إذ بذل أقصى ما فى وسـعه لكى يعـيد صيـاغة عـقول معـاصـريه حـتى يستطيـعوا أن يروا حـقائق عصـرهـم فى ضـوء عـلمى وعـقـلانى ومـوضـوعى. ولم يخـش فى الحق لومـة لائم عندمـا قـام بتعرية كل النوايا الخفيـة والخبيثة والانهزامية لحكام عصـره الذين منعوا كتبه بل أحرقوها، وحرضـوا زبانيتهم على محـاصـرته وإصابته فى مقتل. ولـولا أنه مـحارب من طراز عنيـد وجـرىء وقـوى لما اسـتطاع أن يصـمـد لكـل الضـربات التى انهـالت عليه من كل جانب.

أما الـشاعـر والمفكر والرائد القومى الألمانى جـيتـه (١٧٤٩م - ١٨٢٠م) فقـد وجـد فى مـاكيـافـيللى نجـسـيـدا لروح إيطاليـا التى كـانت تهفـو إلى الوحـدة بعـد أن

مزقتها الحروب الأهلية بين مدنها أو إماراتها أو دويلاتها، وداستها أقدام الغزاة القادمين سواء من فرنسا أو إسبانيا. إن الكاتب القومى الحقيقى هو الذى يقوم بدور الضمير لأمته، خاصة فى العصور التى ينطمس فيها صوت الضمير ويخفت وسط ضجيج الأحقاد والصراعات والأطماع الأنانية التى لا ترى أبعد من موقع أقدامها. كذلك كان جيته معجبا بالوعى الأدبى والفنى عند ماكيافيللى، بل وإبداعه الأدبى الذى تمثل فى كتابته لمسرحية كوميدية متقنة وناضجة اسمها «ماندرا جولا»، وأخرى اسمها «كليزيا»، ورواية اسمها «بيلفاجور»، وأخرى اسمها «سيرة كاسترو تشيو كاستراكانى»، وفيها جسد - إلى حد كبير وبأسلوب أدبى وفنى - نفس التوجهات الفكرية التى وردت فى كتاباته ودراساته، مما يدل على وحدة منظوره تجاه الحياة والعصر. وقد خصصنا الفصل الأخير من هذه الدراسة لتقديم ماكيافيللى ككاتب مسرحى وروائى رائد إلى القارئ العربى، وهو الموضوع الذى لم يتناوله دارس عربى من قبل.

أما الفيلسوف الألمانى الكبير فردريك هيجيل (١٧٧٠م - ١٨٣١م) فقد شهد لماكيافيللى بالعبقرية. وعندما يشهد فيلسوف فى قامة هيجيل بهذا فلابد أن يكون المشهود له عبقريا بمعنى الكلمة. فمن الواضح أن هيجيل وجد نفسه يقف على أرض فكرية مشتركة مع ماكيافيللى. فعندما قال هيجيل إن فهم العالم سهل وميسور عندما ندرك أن العقلى يكمن فى بواطن الأشياء مهما يكن من اختلاف مظهرها الخارجى، وأن الطبيعة كلها عبارة عن مصالحة بين الأضداد، فإنه بذلك كان يبلور حرص ماكيافيللى على بحثه عن القوانين التى تحكم الأشياء والأحداث والمواقف والشخصيات. فالتناقضات والمفارقات والاختلافات غالبا ما تقتصر على الظاهر فحسب، وبالتالى فإن التعامل مع القوانين الدائمة الحاكمة لها أضمن لأنه أقصر سبيل إلى الحقيقة وجوهر الواقع.

أما الفيلسوف والمؤرخ الألمانى فيلهلم دلتاى (١٨٣٣م - ١٩١١م) فقد وصف ماكيافيللى فى كتابه «فهم الإنسان وتحليله فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر» بأنه مؤرخ عظيم اهتدى إلى نظرة جديدة عن الإنسانية،

واستطاع فى الوقت نفسه أن ينقلها إلى العالم الحديث بأسره. فقد بلور صورة الإنسان العملى الذى تسيطر عليه أهداف معينة، ويشرع فى تحقيقها بدقة وعناية، ويختار الوسائل المناسبة التى تساعده على تحقيق هذه الأهداف.

أما المؤرخ السويسرى جاكوب بوركهارت (١٨١٨م - ١٨٩٧م) فقد قال فى كتابه «حضارة عصر النهضة فى إيطاليا» إن ماكيافيللى كان علما من أعلام الحرية فى عصره، سواء حرية الفرد أو حرية الوطن. فقد جسد فى روايته التاريخية «كاسترو تشيو كاستراكانى» كيف أدى طغيان بطلها وظلمه واستعباده لرعيته إلى كل المآسى التى امتلأت بها جنبات الرواية. فالوطن لا تقوم له قائمة إلا إذا اعتمد على مواطنين أحرار يملؤهم شعور الانتماء لوطنهم، وحماسهم لحمل مسئوليته والتضحية من أجله. أما العبيد فلا تشغلهم حرية وطنهم عندما تكون مهددة بالغزو الأجنبى، بقدر ما تشغلهم حريتهم الشخصية التى تعيد إليهم كرامتهم المفقودة، وخاصة أنهم واثقون من أنهم لن يحصلوا على حريتهم تحت وطأة الحاكم الطاغية حتى إذا تحرر وطنهم من ربقة الاحتلال الأجنبى.

والدليل على نظرة ماكيافيللى الشاملة والعميقة لعصره خاصة والحياة عامة أن معظم الفلاسفة والمفكرين شهدوا لعبقريته برغم الاختلافات العقائدية فيما بينهم. أى أنه كان يمثل قيمة لا تحتمل الاختلاف حولها. فمثلا وضع مؤسسا الاشتراكية العلمية كارل ماركس (١٨١٨م - ١٨٨٣م) وفردريك إنجلز (١٨٢٠م - ١٨٩٥م) ماكيافيللى على مساحة مرموقة من خريطة الفكر الإنسانى، وعبرا عن احترامهما وإعجابهما به أكثر من مرة. يقول ماركس إنه قرأ كتاب «المطارحات» بإمعان شديد، واقتبس منه معلومات كثيرة فيما يتصل بوضع النبلاء فى فلورنسا والبندقية. وفى رسالة له بعث بها إلى إنجلز سمى كتاب «الأمير» بـ «المؤلف الرفيع» ذلك لأن صاحبه واحد من الذين «بدأوا ينظرون إلى الدولة بعين إنسان ويستخلصون قوانينها من العقل والتجربة، وليس من اللاهوت والغيبيات»، على حد قول ماركس الذى اعتبر مؤلفات ماكيافيللى مدرسة له تعلم منها الكثير.

أما إنجلز فقد اعتبر ماكيافيللى واحدا من عمالقة أربعة أطلق عليهم لقب «عمالقة النهضة» وهم ماكيافيللى، والفنان التشكيلى الإيطالى العبقرى ليوناردو دافنشى، والمصلح الدينى الألمانى الكبير مارتن لوثر، والفنان التشكيلى الألمانى البريشت دورير. فقد كانوا فى نظر إنجلز الأعمدة الأربعة التى نهضت عليها الثورة الفكرية والعلمية والفنية والإنسانية التى انطلقت بأوربا إلى آفاق لم تكن لتبلغها بدونهم. وكان إعجاب إنجلز بكتاب ماكيافيللى «فن الحرب» إعجابا يفوق الوصف لدرجة أنه أسماه «مارسيليز القرن السادس عشر»، فقد كان ماكيافيللى فى نظره «أول كاتب حربى فى العصر الحديث جدير بالذكر والدراسة».

وتوالت الكتابات والدراسات التى وضعت ماكيافيللى فى المكانة اللائقة به كمؤرخ رائد، ومقنن علم السياسة والاستراتيجية، وخبير بدهاليز النفس البشرية وكهوفها المعتمة الغامضة. ولم تخل دائرة معارف عامة أو معجم سياسى من ذكر حياته وإنجازاته الريادية والمساحة المرموقة التى يحتلها على خريطة الفكر الإنسانى. فمثلا قالت عنه «دائرة المعارف البريطانية»:

«كان الكاتب ورجل الدولة الإيطالى نيكولو ماكيافيللى مفكرا وطنيا عبقريا. استطاع بإدراكه العميق واستيعابه الشامل للسياسات المعاصرة له، ودرايته الواسعة بالطبيعة البشرية أن يصل إلى أفضل النتائج التى غالبا ما أسيئ فهمها - عمدا أو جهلا - واعتبرت أعمالا فاسدة أو ساخرة من القيم الأخلاقية. لقد كان رجلا مستقيما، ومواطنا ممتازا، وأبا رائعا. كان كاتبا عظيما لأنه كان مفكرا عظيما».

أما «دائرة المعارف الأمريكية» فإنها تعتبر ماكيافيللى رمزا أو جسرا للانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، وتربط واقعية فكره السياسى بخدماته وتطبيقاته العملية التى قدمها للنظام الجمهورى الفلورنسى، وتمجد صراحته التى لم يكن لها نظير، وجرأته فى مواجهة الحقائق وإعلانها على الملأ، كما نفت عنه تماما تهمة الفصل بين الأخلاق والسياسة، التى التصقت به قرونا،

بل إنه بلور الأخلاقيات التى لا يمكن لأى سياسى أن يتجاهلها أو ينتهكها. وإذا كان لكل قاعدة استثناء، فإن الاستثناءات من القاعدة الأخلاقية عند ماكيافيللى تكاد تكون نادرة، ولا يمكن اللجوء إليها إلا للضرورة القصوى مثل المواقف التى يتعلق بها مصير الوطن كله، أو تحقيق الوحدة القومية التى كانت حلم ماكيافيللى الأثير، وإقامة الدولة الكبيرة كهدف أسمى يبدو أى شىء آخر فى ظله ثانويا.

فإذا انتقلنا من «دائرة المعارف الأمريكية» إلى «دائرة المعارف الفلسفية» الصادرة فى موسكو عام ١٩٦٤م، أى عندما كان الاتحاد السوفيتى فى أوج مجده، فسنجد أنها فى تمجيدها لريادة ماكيافيللى لا تقل إن لم تزد على «دائرة المعارف الأمريكية». فقد رأت فيه واحدا من أبرز المفكرين الإيطاليين، خاصة عندما سعى للكشف عن قوانين تطور المجتمع بمعزل عن التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية والغيبية، ونظر إلى الدولة والحاكم والسلطات نظرة واقعية وعلمية وتحليلية، وكتب من أجل الوحدة الإيطالية عن إيمان مخلص لكى يعد الأذهان لها.

وقد جاء فى الجزء الرابع من كتاب «تاريخ العالم» الصادر فى موسكو عام ١٩٥٨م أن النتائج المأسوية والآثار المميتة لانقسام إيطاليا كانت واضحة لدرجة أن بعض ممثلى البورجوازية التقدميين نادوا فى القرن السادس عشر بالوحدة الإيطالية. وكان رائدهم هو المفكر السياسى والمؤرخ المعروف نيكولو ماكيافيللى. والظاهرة الجديرة بالملاحظة أن هذا الرأى السوفييتى القح كان متفقا تماما مع رأى المؤرخ الأمريكى كارلتون هايز الذى سجله فى كتابه «أوروبا الحديثة حتى عام ١٨٧٠م»، الصادر فى نيويورك عام ١٩٥٩م.

ولقد كان للجزويت تاريخ طويل فى معاداة ماكيافيللى ومحاربته، لكننا نجدهم اليوم يعترفون بإضافاته وإنجازاته الريادية، إذ يقول المفكر الجزويتى الدكتور ليزلى ووكر الذى كان عميدا لإحدى كلياتهم، إن ماكيافيللى اكتشف طريقة جديدة فى البحث، كما ابتكر أسلوبا جديدا فى معالجة السياسة بالإضافة إلى نظرياته السياسية الجديدة. وإليه يرجع الفضل فى استقراء الحوافز والدوافع

التى تؤدى إلى الحركات السياسية بمنتهى الدقة والحدة والحسم، ولذلك فهو يعتبر من أكثر الكتاب البارزين وأوسعهم تأثيرا فى الشئون السياسية فى العالم حتى الآن، مما يجعل أفكاره وآراءه فى القضايا والمشكلات السياسية جديرة بالدرس والتقصى العميقين، على حد قول ليزلى ووكر فى مقدمته لكتاب «المطارحات».

أما فى الكتاب الموسوعى الذى حرره ج. ك. راب و ج. أ. سيجل لمجموعة من المؤلفين بعنوان «العمل والعقيدة فى أوربا الحديثة المبكرة» عام ١٩٦٩م بنيوجيرسى، فقد وصف المؤلفون ماكيافيللى بأنه أب علم السياسة ومؤسسها. أما ف. جلبرت فى كتابه «ماكيافيللى وكويجاردينى: السياسة والتاريخ فى فلورنسا القرن السادس عشر» الصادر عام ١٩٦٥م فى برنستون، فقد وصف ماكيافيللى بأنه رسول الدولة القومية الحديثة.

أما المؤرخ الأمريكى روبرت بالمر ومعه زميله ج. كولتون فى كتابهما «تاريخ العالم الحديث» الصادر عام ١٩٦٥م فى نيويورك، فقد وصفا ماكيافيللى بأنه «الأبرز بين كتاب عصر النهضة الإيطالية»، وبأن كتاب «الأمير» يعد «أعظم أثر خالد» أنتجه ذلك العصر، وبأن ماكيافيللى كان «يحلم باليوم الذى يحذو فيه سكان فلورنسا؛ أو بالأحرى جميع الإيطاليين، حذو الرومان القدماء، وذلك بإظهار الرجولة فى مجالاتهم السياسية، والانتظام فى صفوف الجيش كى يحققوا الأهداف الوطنية ويرفعوا هاماتهم عالية فى مواجهة أوروبا».

وهناك من المؤرخين الإيطاليين المعاصرين، مثل ر. ريدولفى فى كتابيه «حياة نيكولو ماكيافيللى» ١٩٦٣م، و«ماكيافيللى وعصر النهضة» ١٩٦٠م، من يعتبره ثائرا على أساس علمى واقعى خال من المشاعر الهوجاء والانفعالات المتشنجة. كان ثائرا سلاحه المنطق والكلمة والعلم والتحليل، وقد أثبت التاريخ أنها أسلحة أكثر مضاءً وبقاءً وفعالية من السيوف والبنادق والعربات الحربية. ولذلك خلده التاريخ الذى ألقى بخصومه فى زوايا النسيان.

ويقول ر. وايز فى كتابه «انتشار المذهب الإنسانى الإيطالى» الصادر فى لندن عام ١٩٦٤م إنه لم يعد بين المؤرخين أو الدارسين أو المحللين اليوم من لا يقر بأن ماكيافيللى «كان مواطنا ممتازا، وصديقاً حميما، وأبا محبا، ومفكرا وطنيا، بل حتى مثاليا».

وهذه النماذج التى أوردناها هى على سبيل المثال لا الحصر لإبراز مدى التأثير الذى مارسه ماكيافيللى على الفلاسفة والمفكرين السياسيين على المستوى التنظيرى، أما على المستوى التطبيقى العملى فكان تأثيره واضحا على الحكام والملوك والأباطرة الذين اقتطعوا من سياق كتاباته ما يناسب أهواءهم وأغراضهم الخفية، فكانوا العامل الحاسم فى تشويه صورته وسمعته. ولذلك كان تأثيره عليهم على عكس ما كان يشتهى ويقصد تماما. فقد تجاهلوا معظم الضوابط الأخلاقية والشروط العديدة التى شدد عليها مرارا وتكرارا، وبإيمان لا يهتز فى معظم كتبه.

وعلى سبيل المثال لا الحصر أيضا فإن من أوائل الحكام الأوروبيين الذين تأثروا بماكيافيللى فى حياته، كان الملك الإسبانى شارل الأول (١٥٠٨م – ١٥٥٨م) الذى كان أول حاكم أوروبى قيل عنه إن «الشمس لا تغيب عن ممتلكاته». وكان يؤمن بأن الاعتبارات السياسية بكل الظروف والمصالح والمنافع المرتبطة بها تأتى فى المقام الأول قبل القيم الأخلاقية والتقاليد الدينية، فعلى الرغم من تعصبه للكنيسة الكاثوليكية التى وقفت بالمرصاد لتوجهات ماكيافيللى السياسية والاجتماعية، فإنه شجع توزيع كتاب «الأمير» فى إسبانيا، وجعل منه وزراؤه هديتهم المفضلة لأصدقائهم والمؤيدين لهم.

أما فى انجلترا - وفى حياة ماكيافيللى أيضا - فقد تحمس توماس كرومويل (١٤٨٥م – ١٥٤٠م)، السياسى الانجليزى الشهير فى عهد الملك هنرى الثامن، للأفكار والآراء التى وردت فى كتاب «الأمير»، بعد أن حصل على نسخة مخطوطة منه. وكان من الساسة الذين حرفوا أفكار ماكيافيللى إرضاء

للملوك الذين يعملون تحت إمرتهم، إذ زينوا لهم أن ماكيافيللى وضع فى كتابه الدستور الذى يمكن الحاكم من إحكام قبضته على رعيته بحيث تسير الأمور طبقا لما يشتهى تماما دون متاعب أو عوائق. وبذلك نجح كرومويل فى تهيئة الجو وتمهيد الطريق للملك هنرى الثامن كى يقيم حكما مطلقا لا صوت فيه للشعب ولا إرادة. ولم يكن كرومويل يعلم أنه كان يلعب بالنار حين هيأ كل أسباب الطغيان للملك الذى قضى عليه فى النهاية حتى لا يتصور أنه مستشاره الوحيد وصانع أفكاره. لكن تأثير كتاب «الأمير» لم ينته بوفاة هنرى الثامن، بل استمر بعد ذلك فى ابنته التى خلفته على عرش انجلترا وهى الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨م - ١٦٠٣م) التى كانت أعظم ملوك إنجلترا فى عهد أسرة تيودور. فقد ساعدها كتاب «الأمير» على تحقيق إنجازات مشهودة على الصعيدين الداخلى والخارجى، وعلى الحفاظ على توازن علاقاتها مع الجميع بحيث برعت فى الإمساك بدفة الأمور.

أما فى فرنسا فقد عثر على كتاب «الأمير» فى حوزة كل من هنرى الثالث وهنرى الرابع عند اغتيالهما. وفى النصف الأول من القرن السابع عشر بزغ نجم ريشيليو رئيس وزراء فرنسا الذى اعتبر من أنجح ساسة أوروبا وأطولهم باعا وأعمقهم وعيا، وذلك نتيجة لاستيعابه لأفكار ماكيافيللى الذى أعجب به إعجابا شديدا، بل اعترف فى وصيته السياسية بأنه لولا آراء ماكيافيللى المضيئة والثاقبة لما استطاع أن يبلغ الآفاق التى بلغها، ولذلك دافع عنه بحرارة وأكد على أنه لم يتجن على النفوس البشرية، خاصة فى دنيا السياسة، لأن كل ما فعله أنه وضع تسجيلا أمينا وصادقا لما يدور فى كهوف هذه النفوس، وفى دهاليز تلك السياسة. فهو لم يهتم بالمظاهر والاحتفاليات والمآدب السياسية الفاخرة المعلنة على الملأ بقدر ما اهتم بإعلان أسرار المطبخ السياسى الذى يقوم بطهى الأطعمة الشهية الفاخرة أو الأطعمة المسمومة الفاسدة على السواء.

وأعلن نابليون بونابرت إعجابه الشديد بكل من كتابى «الأمير» و«المطارحات»، بل ووضعهما فى مقدمة أعظم ألف كتاب انتقاها لتكون له مكتبة

متنقلة معه فى تحركاته ومعاركه. وتجلى حماسه لكتاب «الأمير» فى التعليقات التى كانت بمثابة هوامش له، وقيل إنه قام بترجمته بنفسه ترجمة ترضيه هو شخصيا. ولم يكن إعجاب نابليون الثالث بأفكار ماكيافيللى بأقل من إعجاب سلفه.

ولم يتوقف تأثير كتاب «الأمير» بصفة خاصة عبر العصور والقرون المتتابعة. ففى النصف الأول من القرن العشرين اهتم الفاشيون فى إيطاليا والنازيون فى ألمانيا بأفكار ماكيافيللى من منظور منطلقاتهم السياسية والعنصرية الضيقة حتى يسخروها فى خدمة تطلعاتهم المضادة للحرية والكرامة الإنسانية. فقد حاولوا إعادة صب أفكاره فى قوالب متحجرة من جديد تلائم أهدافهم بعد أن احتاج كسر القوالب السابقة المفروضة على ماكيافيللى إلى جهد كبير وزمن طويل. وركب عدد كبير من المؤلفين الألمان والإيطاليين الموجة النازية والفاشية الجديدة، وألفوا كتبا عديدة عن ماكيافيللى حرفوا فيها تفسيراته للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وادعوا فيها حرصه الشديد على ترسيخ دعائم الحكم المطلق حرصا على المصلحة العامة للأمة، وتجاهلوا الشروط والضوابط والضمانات التي نص عليها فى كل كتاباته حتى لا يتحول الحاكم إلى مستبد وطاغية. وكان هذا هو المنظور الذى كتب موسولينى منه رسالته العلمية عن «الأمير» ونال بها درجة الدكتوراه، والتى ربط فيها ربطا عضويا بين مذهب ماكيافيللى السياسى ومنهج الحكم الاستبدادى، وهو المذهب الذى وصفه موسولينى فى رسالته بأنه أصبح «حيا اليوم بعد أربعة قرون». ومن الواضح أن هدف موسولينى من تفسير ماكيافيللى على هذا النحو أن يتخذ منه شعارا أو حجة أو ذريعة أو غطاء يخفى تحته دكتاتوريته التى جلبت الكوارث على إيطاليا فى حين كان كل هم ماكيافيللى منذ أربعة قرون أن يجنب وطنه إيطاليا الكوارث بقدر الإمكان.

وبلغ تمجيد النازيين لماكيافيللى لدرجة أن هتلر كان يضع كتاب «الأمير» إلى جانبه فى مكتبه، وقيل إنه كان يعيد قراءة قسم منه قبل النوم فى كل ليلة،

كما اعترف فى كتابه الشهير «كفاحى» بتأثره العميق بفكر ماكيافيللى. لكنه لم يكن تأثرا موضوعيا لأنه قام بلى عنق الحقائق والقوانين التى بلورها ماكيافيللى حتى تساير جبروته وبطشه. وهذا التحريف الذى قام به كل من هتلر وموسولينى لأفكار ماكيافيللى، دفع العديد من المؤلفين الألمان والإيطاليين المخلصين لفكرهم ووطنهم إلى التصدى لهذا الموقف، وألقوا أضواء فاحصة فى الثلاثينيات على الجوانب المشرقة والإيجابية والإنسانية فى آراء ماكيافيللى التى لم تكن لها أدنى صلة بجرائم الحرب والسياسة التى ارتكبها هتلر وموسولينى. وقد تبع هؤلاء المؤلفين كتاب آخرون من دول مختلفة، أكدوا فى كتاباتهم أن كل واحد من الساسة الذين جاءوا بعد ماكيافيللى، تمنى أن يكون نموذجا للأمير الذى وصفه فى كتابه، لكنه فى الغالب الأعم كان مجرد صورة مشوهة أو نسخة باهتة هزيلة للأمير الذى أراده ماكيافيللى. وإن كان هناك من الكتاب من يعتبر نابليون بونابرت تعبيرا صادقا وقويا عن فكر ماكيافيللى، فى حين اعتبر فريق آخر منهم الزعيم الفرنسى شارل ديجول نموذجا مثاليا للأمير الحديث.

وقد أثبت التاريخ أنه من الصعوبة بمكان أن يستطيع حاكم معاصر، مهما كانت الظروف مواتية، تقمص الشخصية التى جسدها ماكيافيللى بحذافيرها. وكان الزعيم الثورى الإيطالى أنطونيو جرامتشى قد تنبأ بزوال عصر الزعماء الذين ينتمون إلى طبقة السوبرمان، والذين لابد أن تحل اللحظة التى يتركون فيها أماكنهم للأحزاب والمؤسسات السياسية. ففى رأيه أن الفرد فى عالمنا المعاصر بكل تعقيداته وتشابكاته أصبح عاجزا عن أن يتحول إلى «أمير» ماكيافيللى، لأن القيادة السياسية لم تعد فردية محضة كما كانت فى الأزمنة القديمة، بل شرعت فى اتخاذ صفة الجماعية بشكل أو بآخر. ومع ذلك ظل ماكيافيللى يحتل مكانته المرموقة والبارزة فى الفكر السياسى العالمى وتطوره، ليس فى نظر الصفوة من المثقفين فحسب بل عند العامة من الجماهير أيضا. وذلك بعد أن لمسوا الدوافع المريبة لتشويه صورته وفكره بصفة مستمرة ومتجددة، وبعد أن أدركوا أنه يأتى فى مقدمة رسل الوحدة القومية وروادها ليس فى إيطاليا فحسب، بل فى مختلف

أنحاء أوروبا والعالم أجمع. ويكفى أن نذكر أن كافور زعيم الوحدة الإيطالية كان يعتبر كتب ماكيافيللى المدرسة التى تعلم فيها معانى الوحدة القومية سواء على مستوى التنظير أو التطبيق.

وقد تحولت داره الواقعة فى قريته القريبة من فلورنسا إلى متحف وطنى يؤمه الإيطاليون والسياح الزائرون لفلورنسا. وفى عام ١٩٦٩م احتفلت إيطاليا ومعها العالم بمرور خمسة قرون على ميلاده الذى اعتبرته عيدا قوميا لها، وأقامت بهذه المناسبة ضريحا فخما فى المكان الذى دفن فيه، وحفرت عليه وتحت اسمه مباشرة عبارة زاخرة بالحب والعرفان بالجميل، تعويضا عن كل ما لاقاه فى حياته وبعد رحيله. كانت العبارة تقول: «ليس هناك مديح يمكن أن يفى هذا الاسم حقه».

هذا فى دول الغرب أما فى دول الشرق عامة، والبلاد العربية خاصة، فلا تزال هناك ملامح عديدة من الصورة المشوهة التقليدية مترسبة فى الأذهان. فقد عرف العرب ماكيافيللى من خلال خصومه الذين نشروا ثقافتهم فى ربوع العالم العربى عندما كان تحت وطأة الاستعمار البريطانى والفرنسى الذى لم يكن يتمنى أبدا ظهور زعيم عربى أو مصرى من طراز «أمير» ماكيافيللى، يستطيع أن يجمع كلمة العرب ويشعل فيهم روح الوحدة القومية. ولذلك كان الاستعماريون بالمرصاد لمحمد على الكبير، خاصة بعد أن علموا أنه اطلع على كتاب «الأمير» وكان له فيه رأى واع وناضج أثار مخاوفهم. وهو رأى سنتعرض له فيما بعد.

قبل مجىء محمد على الكبير لحكم مصر، كان الحكام الشرقيون قد اهتموا بأفكار ماكيافيللى فى وقت مبكر نسبيا. وهناك بعض الأدلة التى تؤكد أن كتاب «الأمير» قد ترجم خصيصا للسلطان العثمانى مراد الرابع الذى فسره بدوره تفسيرا خاصا به للغاية وبعيدا كل البعد عن القيم الإنسانية والأخلاقية التى نادى بها ماكيافيللى. فقد تصور السلطان أن هيبة الحكم التى أكد عليها ماكيافيللى ليست سوى البطش بالخصوم وكل من يظن فى نفسه القدرة على أن يعلن رأيا أو يسلك سلوكا متعارضا مع الرغبة السامية للسلطان. ولذلك يقدر عدد

الذين قتلوا بأمر مباشر منه بحوالى ١٠٠ ألف شخص، من بينهم كان ثلاثة من إخوته وأحد أعمامه. ويقول كريزى فى كتابه «تاريخ الأتراك العثمانيين» الصادر فى عام ١٩٦١م، أنه فى عام ١٦٣٧م عندما كان الطاعون يقضى يوميا على حياة حوالى خمسمائة نفس من سكان العاصمة إسطنبول، كان السلطان مراد الرابع يقضى ليالى حمراء مع محظياته وعشيقاته وهو يضحك ساخرا متهكما بقوله: «إن الله يعاقب الأشرار فى هذا الصيف، وربما يقضى على الأشراف فى الشتاء القادم». فكم من جرائم ارتكبت باسم ماكيافيللى وهو منها براء.

أما محمد على الكبير فلم يقل اهتمامه بكتاب «الأمير» عن اهتمام حكام أوروبا السابقين أو المعاصرين له، مما يدل على انفتاحه العجيب على حضارة عالمه المعاصر والتيارات الفكرية والسياسية التى تسوده. فقد كان حاكما واعيا بملابسات عصره وظروفه المحلية والدولية، وذلك على النقيض تماما من المماليك الذين قضى عليهم بعد أن حكموا مصر وأحالوها إلى قبائل أو دويلات متصارعة مثلما وقع فى إيطاليا أيام ماكيافيللى، فجعل منها دولة مهابة وذات سيادة ويحسب لها الغرب ألف حساب، لدرجة أن كارل ماركس قال عن مصر فى عهده إنها «الجزء الوحيد الذى استطاع أن ينبض بالحياة فى كل أنحاء الامبراطورية العثمانية وأطرافها». والدليل على عبقرية محمد على الكبير أنه لم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى سن متأخرة، ومع ذلك كان وعيه العميق بمجريات الأمور فى عصره، وبكل ما يتعلق بنظم الحكم وأساليب إدارة الدولة، من أهم الدوافع والأسباب التى أدت إلى إنجازاته الحضارية والتاريخية الكبيرة.

لم يكن محمد على يتوانى عن معرفة أبعاد كل القضايا والتيارات التى يسمع عنها، فقد كان بالغ اليقظة والحساسية. فمثلا بعد أن عرف أهمية كتاب «الأمير» واهتمام معظم الحكام به من الدبلوماسيين الأجانب الذين جاءوا للقائه، أسرع بتكليف الأب روفائيل أنطوان زاخور، وكان من المترجمين السوريين الذين عملوا مع الفرنسيين فى أثناء حملتهم على مصر، ثم عمل مع محمد على الكبير عندما استولى على حكم مصر، كلفه بترجمة «الأمير» إلى العربية، وأنجز المهمة

فى حوالى عام ١٨٢٥م، لأنه «جد مشوق لمعرفة ما يتضمنه الكتاب» على حد قول محمد على نفسه. وقد تجلى وعى محمد على الفكرى والسياسى بعد اطلاعه على «الأمير» فى لقاء له مع دبلوماسى إيطالى، عقد فيه مقارنة بين ماكيافيللى وابن خلدون، مرجحا فى النهاية كفة الأخير، إذ قال:

«إنكم تثيرون فى إيطاليا ضجة كبيرة حول كاتبكم المعروف ماكيافيللى، وقد أمرت بترجمة كتابه لكى أعرف ما فيه، لكننى أعترف بأننى وجدته أقل بكثير مما كنت أتوقع، ومن الشهرة التى له. وإننى أعلن إليك أيضا أن هناك مؤلفا آخر عربيا أثار دهشتى ونال إعجابى، وهو مقدمة ابن خلدون. إن هذا الكاتب أكثر حرية فى تفكيره من ماكيافيللى، بل إننى أعتقد أن كتابه أكثر وأشد نفعا، وإذا كان كتاب ماكيافيللى ممنوعا تداوله فى بعض البلاد الأوروبية، أفما كان من الأجدر أن يكون المنع أتم وأعم بالنسبة لمقدمة ابن خلدون؟».

ومن الواضح أن العيب لم يكن فى كتاب ماكيافيللى أو فى فهم محمد على له، بل كان فى ضعف ترجمته وركاكة أسلوبها الذى شوه معانيه ودلالاته، لدرجة أنها لم تصلح للنشر. ومن الجدير بالذكر أن مخطوطة هذه الترجمة ما تزال محفوظة فى دار الكتب المصرية بباب الخلق بالقاهرة. وكان الدكتور جمال الدين الشيال قد قام بمقارنتها بالنص الأصلى موضحا مدى الركاكة التى بلغتها فى توصيل الأفكار والآراء. وذلك فى كتابه القيم «تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على» الصادر فى القاهرة عام ١٩٥١م. ومع ذلك تظل لهذه الترجمة أهميتها التاريخية بحكم أنها أول ترجمة عربية لكتاب «الأمير».

أما أول ترجمة منشورة له فقد قام بها المحامى المصرى محمد لطفى جمعة الذى كان يجيد الإيطالية، وبالتالى لم تكن هناك حواجز بينه وبين النص الأصلى. فقد تم نشر الترجمة عام ١٩١٢م تحت عنوان «كتاب الأمير. وهو تاريخ الإمارات الغربية فى القرون الوسطى». وكان المترجم مثقفا من طراز رفيع، فلم يشأ أن يقتصر جهده على الترجمة فحسب، بل استهل ترجمته بمقدمة وافية تقع فى خمسين صفحة، حلل فيها أبعادا مختلفة ومتنوعة من حياة ماكيافيللى ومؤلفاته

بأسلوب علمى، سلس، موضوعى. وقد بلغت دقته العلمية وحماسه للموضوع درجة دفعته للسفر خصيصا إلى إيطاليا، وزار هناك قريته وداره ليجمع عنه كل المعلومات الممكنة. بل إنه رحل إلى باريس عندما علم بأن أحد أحفاده يقيم فيها، وحدث لقاء معه وحديث شائق عن جده الأكبر الشهير. يقول محمد لطفى جمعة فى مقدمته لترجمته:

«لما قرأت كتاب «الأمير» شغفت به وكنت أحمله بجانب رباعيات الخيام. أقرأ الخيام لدى حزن النفس وانقباض الصدر لأثمل بخمره المقدسة المطهرة، وأقرأ «الأمير» لأفيق من خمر الخيام ولأعود إلى ميدان الحقائق المؤلمة الذى تصطدم فيه جيوش القوى والرغائب وتشتبك به سيوف الحوادث ورماح الكوارث».

وهكذا استطاع ماكيافيللى أن يتجاوز حدود الزمان والمكان لأنه استطاع أن يضع يده على القوانين والثوابت التى تحكم خصائص النفس البشرية عندما تتعامل مع المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فقد اخترق بفكره الثاقب الظواهر البراقة والعابرة والمؤقتة، والنتائج الراهنة، إلى الدوافع والأسباب التى أدت إليها. ذلك أن العبرة أساسا بالدافع أو السبب أو الوسيلة وليس بالغاية، أى على النقيض تماما من الفكرة التى شاعت عنه عبر العصور والأجيال نتيجة للتفسيرات الخاطئة لجملته الشهيرة: «الغاية تبرر الوسيلة» والتى اقتطعها المغرضون والحكام من سياقها لتبرير الوسائل غير الإنسانية التى اتخذوها لتحقيق غاياتهم. لقد أخذ ماكيافيللى بيد قارئه بعيدا عن المظاهر والاحتفاليات والمآدب السياسية البراقة الفاخرة، ليدخل به إلى المطبخ السياسى بكل روائحه الخانقة وأسراره فى طهى المؤامرات، وحبك الخطط، ودس السم فى الحلوى، وطبخ لحوم البشر إذا أمكن، فيطلع القارئ على أسراره، فيصبح واعيا ويقظا لكل الأحابيل والكمائن التى ينصبها الساسة بعضهم لبعض، ولشعوبهم أيضا. من هنا كانت كراهية ماكيافيللى والحقد عليه نتيجة طبيعية لكشفه وتعريته القاسية لكل ما يفعله الطهاة الكبار فى المطابخ السياسية، ومن هنا أيضا دار الفصل التالى حول أسرار المطبخ السياسى.

الفصل الرابع

السم والعسل فى المطبخ السياسى

فتح ماكيافيللى باب المطبخ السياسى على مصراعيه لكى ترى كل الأطراف المعنية ما يدور داخله، بصرف النظر عما يقدم منه إلى المأدب الفاخرة التى تسلط عليها الأضواء. وقد أثبتت أن القوانين التى تحكم العمل السياسى والتى بلورها ماكيافيللى فى كتاباته خاصة «الأمير»، وأن أصول الطهى فى المطبخ السياسى لا تتغير عبر العصور، وسواء أكانت إيجابية أخلاقية أم سلبية غير أخلاقية، فهى ليست من ابتكار ماكيافيللى واختراعه، بل هو مكتشفها ومقننها فحسب، شأنه فى ذلك شأن إسحق نيوتن عندما اكتشف الجاذبية، وأينشتاين عندما اكتشف النسبية وغيرهما من العلماء الذين اكتشفوا قوانين وجدت مع الكون نفسه فازدادت معرفة الإنسان به. كذلك اكتشف ماكيافيللى قوانين وجدت مع بداية وعى الإنسان بهذا الكون وشروعه فى التعامل مع مجتمعه، ولذلك اعتبر أبو علم السياسة التى كانت قبله اجتهادات فردية ومتناثرة عبر العصور وفى مختلف المناطق.

وكانت المحن الكثيرة التى مر بها ماكيافيللى، وتشويه سمعته وصورته سواء فى حياته أو بعد رحيله، نتيجة لحقد خصومه الذين نجحوا فى إقناع معظم الناس أنه اخترع هذه القوانين ولم يكتشفها، أى أنها لم تكن موجودة قبله، وبناء على ذلك فإنه السبب الرئيسى فى فساد أخلاق الساسة الذين كانوا فى منتهى الطهارة والمثالية قبل مجيئه !! إنها حجة سخيفة ومضحكة ومثيرة للسخرية، ومع ذلك ترسخت فى الأذهان وكادت أن تصبح من البدهيات السياسية التى لا تقبل

النقاش، بسبب ترحيب الساسة والخصوم بهذا التفسير المعوج المنحرف، حتى يجعلوا منه قناعا يخفون خلفه أهدافهم الحقيقية. فمن يلعن ماكيافيللى فى العلن لابد أن يكون رمزا للأمانة والصدق والطهارة والمثالية، حتى لو كان يعمل فى الخفاء نقيض ما يعلنه تماما.

لم يأت ماكيافيللى بشىء إلا كان نابعا من قراءاته المستفيضة فى التاريخ والفلسفة والحضارة، أو من خبراته العملية عندما اشتغل بالحياة السياسية والدبلوماسية فى مهمات خارجية تعددت وكثرت فأصبح خبيرا بأحوال الممالك وطبائع حكامها. فلما انقلب الزمن وهوت جمهورية فلورنسا، طارد الأمراء الجدد لآل ميديتشى، ماكيافيللى ونفوه إلى أطراف المدينة وحددوا إقامته فى ريفها، وهو الذى كان يتدفق بالحيوية والعلم والثقافة، ولا يمكن أن يحتمل حياة مكبوتة بهذا الشكل. ولم يجد أمامه منفذا سوى اجترار ذكرياته، واسترجاع خبراته وتحليلها فى تأن وهدوء، يتيحهما له جو المنفى الراكد الكئيب. وقرر أن يسجل ما يعرفه هو من ثقافته وخبرته، ولا يعرفه الآخرون لعله يقدم دروسا مفيدة تعمق من وعيهم وتسلحهم باليقظة الكفيلة بتجنبهم أية محاولات لخداعهم وتضليلهم. فكان كتابه «الأمير» فى عام ١٥١٣م بمثابة دليل لأصول الطبخ السياسى وأسراره التى لا يدركها الكثيرون. فبدت روائح المطبخ كريهة تزكم الأنوف، ومع ذلك واصل ماكيافيللى فتح كل الأبواب والنوافذ حتى تبدو الأسرار والوسائل سافرة لا تتجمل.

وبدلا من أن تتجه الأنظار إلى المطبخ الذى فتح ماكيافيللى بابه على مصراعيه بهدف إصلاح أحواله وجعله أكثر نظافة وإنسانية، اتجهت إلى ماكيافيللى نفسه الذى انهالوا عليه بأقذع الاتهامات. فهو حامى الوصولية ومروج الانتهازية، وهو مبتكر مبدأ الغاية - مهما كانت رعناء وهوجاء وخبيثة وقذرة - تبرر الوسيلة. أى أنه باختصار طباخ السم الذى سعى لدسه فى عقول وأفكار الساسة الأبرياء من كل ذنب!! فهو الذى علم الأمراء أو القادة أو الساسة كيف يكونون مرهوبى الجانب غير محبوبين، وأن يكونوا كالثعالب حتى يفلتوا من

المكائد، وأن يصبحوا كالأسود حتى يشيعوا الرعب فى قلوب من يتربصون لهم من الذئاب! وكأن الساسة كانوا فى انتظار تعليمات ماكيافيللى كى ينفذوها! وكان الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو خير من فهم هدف ماكيافيللى الحضارى وعبر عنه فى كتابه الشهير «العقد الاجتماعى» حين قال: «كان ماكيافيللى يتظاهر بإعطاء دروس للملوك فى حين كان يعطى دروسا عظيمة للشعوب». كان تعاطفه عظيما مع الشعوب التى تحولت إلى ريش فى مهب رياح أطماع الملوك ونزواتهم، فأراد أن يوقظها من سباتها وضياعها كى تدرك أبعاد ما يدبر لها فى الخفاء، وكان هو نفسه أول ضحية لهذه الجرأة والمواجهة والصراحة.

فعلى سبيل المثال كانت الملكة الفرنسية الإيطالية الأصل كاترين دى ميديتشى تعتبر «الأمير» كتابها المقدس، دون أن تتمسك بالأفكار الواردة فيه مما يبدو واضحا من تصرفاتها الشخصية وسياستها العامة التى كانت مناقضة له تماما، إلا أن إعجابها الخبيث بماكيافيللى وتشجيعها لنشر « الأمير» لإخفاء ما كانت تدبره وتحيكه من مؤامرات، كان كافيا لاعتبار ماكيافيللى مسئولا عن فعلتها النكراء عندما دبرت بأسلوب وضيع مذبحة عامة للبروتستانت الفرنسيين فى ليلة احتفالهم بمولد القديس بارثلوميو عام ١٥٧٢م، أى بعد وفاة ماكيافيللى بحوالى نصف قرن، مما أدى إلى أن يصب البروتستانت جام غضبهم على ماكيافيللى. فبعد ذلك بخمس سنوات فقط أصدر جانتييه كتابه «ضد ماكيافيللى» الذى لم يحمله فيه مسئولية المذبحة المذكورة فحسب، بل اعتبره كذلك المسئول الأول عن كل مساوئ ملوك فرنسا هنرى الثانى وشارل التاسع وهنرى الثالث. وهكذا كان ماكيافيللى ضحية البروتستانتية كما كان ضحية الكاثوليكية الوحيد الذى لم يدافع عنه البروتستانت لأنهم اتهموه ببساطة بأنه كان «معلم الملوك الكاثوليك».

وعندما نتوغل فى أركان ودهاليز المطبخ السياسى سنجد الملك البروسى فردريك الأكبر الذى حارب أفكار ماكيافيللى بلا هوادة فى حين أنه قام بتحريفها

تماما لتناسب أهدافه العملية. فقبل مجيئه إلى الحكم تهجم على ماكيافيللى فى رسائله التى كان يبعثها إلى الفيلسوف الفرنسى فولتير الذى لم يتفق معه أبدا فى هذا الهجوم لأنه كان يكن احتراما شديدا لماكيافيللى. ومع ذلك واصل تراسله جريا على عادة ملوك وأمراء أوروبا الذين كانوا يحاولون الظهور بمظهر يتفق مع قيم عصر التنوير. وواصل فردريك الأكبر تظاهره بالمثالية حتى ارتقى عرش بروسيا، فألف كتابا سماه «ضد ماكيافيللى» ليكون ثانى كتاب بنفس العنوان بعد كتاب جانتيه، وأعلن فيه حربا شعواء على ماكيافيللى الذى وصفه بأنه «مدافع عن الجريمة»، وبأنه «إحدى خوارق الشيطان»، وبأنه يستهدف من آرائه إقامة «حكومة مستبدة، غادرة، جشعة»، وإثارة «حروب غير عادلة». هذا برغم أن ماكيافيللى لم يدع فى أى من مؤلفاته إلى مثل هذه الأخلاقيات غير الإنسانية فى حين أن فردريك الأكبر أحال هذه الأخلاقيات الفاسدة إلى منهج دائم لحكمه الذى استمر ستا وأربعين سنة. ومن الواضح أن إجماع معظم الملوك والأمراء والحكام عبر العصور على مهاجمة ماكيافيللى وتشويه صورته وسمعته، لم يكن سوى رسالة غير مباشرة إلى شعوبهم بأن صفحتهم ناصعة البياض وغير ملطخة بالخطايا والمساوئ والمؤامرات التى ادعوا وجودها فى مؤلفات ماكيافيللى. هنا يمكن طرح سؤال يمكن أن يعريهم تماما: إذا كان ماكيافيللى بهذه البشاعة والخبث والمكر والدهاء والانتهازية والمراوغة والتآمر والخيانة، فلماذا كل هذا الهجوم المتواصل عليه عبر العصور وفى مختلف الممالك والبلاد، فى حين كان من الممكن إهماله تماما وإلقاء مؤلفاته فى مزبلة التاريخ؟! إن الرجل لم يملك سلطة أو سطوة من أى نوع سوى فكره وقلمه، فى حين كان خصومه وأعداؤه وكارهوه يملكون الجيوش والثروات والسلطات التى لا حدود لها، فلماذا كل هذا الهجوم بل كل هذا الخوف من رجل أعزل مريض مثله؟! والإجابة عن هذا السؤال تكمن فى تعليق جان جاك روسو الذى أكد فيه أن ماكيافيللى كان يعطى دروسا عظيمة للشعوب كى ترى حكامها على حقيقتهم، فأراد هؤلاء الحكام طمس هذه الحقيقة بتحطيم المرآة التى قدمها ماكيافيللى لهذه الشعوب.

واستمر فكر ماكيافيللى بقوته التى جعلته أبا لعلم السياسة عبر العصور.
فإذا انتقلنا بالمطبخ السياسى الذى كشفه ماكيافيللى للعيان منذ ما يقرب من خمسة قرون إلى العقد الأخير من القرن العشرين ، سنجد أن المشهد قد تحسن كثيرا، وأصبحت العلاقة بين المطبخ وقاعة تناول الطعام قريبة بل حميمة، إذ أوشك هذا الانفصام العتيد على الاختفاء. وأصبح الساسة والحكام، فى مواقف كثيرة، يجدون حرجا فى إخفاء كل الحقائق بعد أن تحول العالم إلى قرية صغيرة، بل أصبح من مظاهر القوة أن يدلى الحاكم بتصريحات تدل على أنه ليس لديه ما يخشى من إعلانه على الملأ. فمثلا فى عام ١٩٩١ قال ديفيد ميلور أحد وزراء حزب المحافظين البريطانى إن رجال السياسة ليس لهم أصدقاء، فهم جميعا عبارة عن أسماك قرش تحوم فى حلقات بحثا عن الدماء، وعندما تشمها تظهر على سطح الماء، لكنه فى الوقت نفسه ينصح رجال السياسة بضرورة أن يكون لهم صديق واحد بعينه، يكون قريبا منهم، ينصحهم فيسمعون له ويطيعونه. هذا الصديق له مواصفات معينة، أهمها أنه رجل ذو تفكير استراتيجى، ورؤية ثاقبة، واقعى لا يخاف من قول الحقيقة مهما كانت قاسية. ليس له أى هدف أو مصلحة أخرى إلا نجاح هذا السياسى فى خدمة وطنه واستمراره فى السلطة من أجل تقدم شعبه وازدهاره. هذا الصديق يقترب عمره الآن من خمسة قرون واسمه بالكامل نيكولو ماكيافيللى.

ويقول هذا الوزير البريطانى المحافظ إن السر فى نجاح مارجريت ثاتشر كرئيسة وزراء بريطانية ضربت رقما قياسيا فى الاستمرار فى الحكم الذى تركته بمحض إرادتها، يرجع إلى دراستها المتعمقة لمؤلفات ماكيافيللى خاصة كتابه «الأمير» ، فقد سارت على ضوء آرائه وتعاليمه فى العديد من قراراتها الهامة التى لاقت نجاحا كبيرا سواء على المستوى الداخلى المحلى أو المستوى الخارجى الدولى. فمثلا يقول ماكيافيللى فى «الأمير» أن حربا ناجحة خارج الحدود هى من أكبر العوامل فى توحيد البلاد وحشد الشعب وراء الزعيم، والقضاء على المعارضة الداخلية التى تنتقد السياسات المحلية . وقد تأكدت هذه النظرية فى حرب

فوكلاند التى خاضتها «الأميرة» مارجريت ثاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة التى آمنت بما قاله ماكيافيللى فى «الأمير» من أن لا شىء يعطى الأمير مكانة عالية مثل الحملات العظيمة والمظاهر الواضحة لقدراته الشخصية التى تؤكد أنه سيد الموقف بلا منازع.

وبعد انتصار مارجريت ثاتشر العسكرى الساحق فى حرب فوكلاند، واصلت تطبيقاتها لتعاليم ماكيافيللى وأفكاره فى ضرورة الوحدة الوطنية وحشد طاقات الشعب، فنجحت فى توحيد صفوف حزبها، وشل تحركات العناصر المتمردة والمعوقة داخل الحزب، وتحييد المعارضة فى مواجهة الشعبية الكبيرة للحزب، وتحويل الشعور العام بالاستياء إزاء سياستها الداخلية إلى تأييد بلا حدود، لدرجة أن صحيفة «التايمز» اللندنية قالت إنه يحق لثاتشر أن تفوز بلقب «الأميرة»، وأن تتمتع باستحسان ماكيافيللى نفسه، وخاصة أن الأمير الرجل الذى عقد عليه ماكيافيللى الأمل فى إصلاح الاعوجاج السياسى والانطلاق بوطنه إلى آفاق الاستقرار والتقدم والازدهار، لم يستطع أن يحول أفكار ماكيافيللى إلى حقائق مادية ملموسة على أرض الواقع كما فعلت مارجريت ثاتشر فى الربع الأخير من القرن العشرين.

استطاعت ثاتشر أن تستوعب فحوى فلسفة ماكيافيللى السياسية، عندما نفذت سياستها الصارمة إزاء عمال مناجم الفحم المضربين فى عام ١٩٨٤م، وتمسكت بموقفها، ونجحت فى النهاية فى إخضاعهم لقراراتها من أجل الصالح العام للأمة. فكانت تلك السياسة العنيدة هى أكبر دليل على صحة نصيحة ماكيافيللى التى تخير الحاكم بين معاملة الشعب معاملة جيدة وحانية، أو إخضاعه تماما للقرار الاستراتيجى الذى لابد من اتخاذه تفاديا لمشكلات وتعقيدات يمكن أن تترتب على التردد فى اتخاذه، وتكون النتيجة أن يدفع الشعب ثمن هذا التردد أضعافا مضاعفة وعلى مدى طويل. فالشعب يتألم من الإصابات البسيطة ويراها نوعا من المحن والكوارث التى تحتم عليه الانتقام من المتسببين

فيها بطريقة أو بأخرى، لكنه لا يستطيع الانتقام عندما تكون القرارات استراتيجية ومصيرية وحاسمة، لأنها تكون عندئذ نوعا من الإصابات القاصمة التى لا يقوى على الانتقام منها.

ويقول ديفيد ميلور الوزير البريطانى السابق إن مارجريت ثاتشر هى الزعيمة الوحيدة فى التاريخ الحديث لبريطانيا التى جسدت تعاليم ماكيافيللى على أرض الواقع، لدرجة أن هزائمها أيضا لم تدفعها إلى الانحراف بعيدا عن هذه التعاليم. فقد ارتبط اسمها بقانون الضرائب المكروه الذى أصرت على إصداره، وعرف باسم «الضريبة على الرءوس» أو «بول تاكس»، برغم أن ثلاثة من وزرائها كانوا على استعداد للاستقالة على سبيل التضحية من أجلها ككباش فداء، لكنها أصرت على حمل مسئولية قرارها مما أثار إعجاب خصومها أنفسهم. وقد اعتزلت الحكم بمحض إرادتها وهى فى أوج مجدها، تماما مثلما فعل ديجول عام ١٩٦٨م فى أعقاب إضرابات الطلبة برغم أنه كان فى إمكانه أن يستمر فى الحكم بنفس قوته المعهودة.

أما جون ميجور الذى خلف مارجريت ثاتشر فى رئاسة الوزارة وزعامة حزب المحافظين، فقد رأى الخبراء والكتاب السياسيون أنه ضرب بتعاليم ماكيافيللى عرض الحائط، وقد يكون ماكيافيللى قد تصور شخصية ميجور عندما تحدث عن الأمراء المترددين الذى يتبعون طريق الحياد من أجل حماية أنفسهم من الخطر المباشر، فتكون النتيجة أنهم يمضون مثلما أتوا، دون أن يتركوا بصمة مميزة لهم على صفحات تاريخ بلادهم، ذلك أن المكانة التى يحرزها المتردد غالبا ما تكون محدودة للغاية أو معدومة، وسرعان ما ينساه أبناء بلده بمجرد رحيله الذى غالبا ما يكون ضد إرادته وبرغم أنفه. وهذا هو ما جرى لجون ميجور بالفعل عندما تمكن شاب ضرب الرقم القياسى فى صغر سنه، من تقلد زعامة حزب العمال ثم اختطف من ميجور رئاسة الوزارة لحزبه بعد ثمانى عشرة سنة قضاها المحافظون فى الحكم.

لكن العمل فى المطبخ السياسى عند ماكيافيللى له شروطه وأصوله وضوابطه طبقا لمنهج علمى وعملى لابد أن يقوم بدراسة جدوى لكل حالة على حدة. فالقاعدة الذهبية الوحيدة هى أنه لا توجد قاعدة ذهبية مطلقة وشاملة وتصلح لكل زمان ومكان دون التفكير العلمى والمتأنى فى أساليب تطبيقها كليا أو جزئيا أو انتظار الوقت الملائم لها، أو عدم تطبيقها على الإطلاق لاحتمال أن تأتى بنتائج عكسية تماما. فمثلا إذا كانت ثاتشر قد طبقت فى حرب فوكلاند، وبنجاح باهر، مبدأ ماكيافيللى الذى يؤكد أنه لا شىء يعطى الأمير مكانة عالية مثل الحملات العظيمة والمظاهر الواضحة لقدراته الشخصية، فإن الحملة الأمريكية فى فيتنام لم تأت بالوبال على إدارة الرئيس الديمقراطى ليندون جونسون فحسب، بل على الأمة الأمريكية التى فقدت أكثر من خمسين ألف جندى، ثم انتهت بطردها تماما من الأراضى الفيتنامية. بل إن الانسحاب الأمريكى من فيتنام نتيجة لفكر هنرى كيسنجر وزير الخارجية وجهده فى هذا الصدد، كان بداية بزوغ نجمه كأحد مفكرى السياسة العالمية الكبار، واعتبر هذا الانسحاب من مآثر إدارة الرئيس الجمهورى ريتشارد نيكسون الذى أنقذ ماء وجه أمريكا من أوحال فيتنام ومستنقعاتها. فلم تكن الظروف مواتية لمثل هذه الحرب بأية حال من الأحوال، ولذلك كانت سلسلة متصلة من الخسائر. ذلك أن عناصر الجرأة والإقدام والشجاعة والمبادرة عند ماكيافيللى مشروطة بضوابط وحسابات واعتبارات تجنبها التحول إلى التورط فى مأزق قد يصعب الخروج منها إلا بعد خسائر فادحة.

وكانت عين ماكيافيللى بالمرصاد لما يدور فى المطابخ السياسية للدول أو الإمارات المتصارعة مع وطنه فلورنسا. ففى زمنه تعاظمت قوة فرنسا من جهة وقوة البابوية من جهة أخرى أيام البابا اسكندر السادس الذى كان من آل بورجيا، واستنزفت إمارة فلورنسا حربها مع إمارة بيزا. فاضمحلت فلورنسا وأخذت تعتمد فى حمايتها على الجيوش الفرنسية. وكان ماكيافيللى يرصد كل هذه الدسائس الدولية فى سبيل السيطرة، فدعا إلى إنشاء جيش وطنى من أبناء

فلورنسا للدفاع عن دولتهم. وكان ملتهب الوطنية، نذر حياته لمجد وطنه وكرامته، لكن سلوك الملوك والأمراء فى السياسة الدولية علمه الواقعية العلمية التحليلية التى نلمسها فى كل كتاباته. فقد اخترق ستار المظاهر البراقة، وتجاوز مأدب أطايب الطعام المزيف الذى لا يشبع من جوع، وربما كان مسموما، إلى دهاليز المطبخ السياسى وأركانه المعتمة المشبعة بالأبخرة والروائح، ليرصد أصول الطهى السياسى الذى يحتم على الدول فى عصره ألا تتحرك إلا بدافع المصلحة الآنية، ولا تحترم اتفاقاتها إلا حين تعود عليها بالنفع، وكما وجد الدول كذلك وجد الأفراد.

من هذه الأصول أيضا يؤكد ماكيافيللى على أنه فى علم الخرائط الطبيعية يضع الجغرافى نفسه فى السهول الواطئة ليرصد معالم الجبال والمرتفعات، ثم يضع نفسه على الجبال والمرتفعات ليرصد تضاريس السهول الواطئة، وبالمثل فعالم السياسة يجب أن يضع نفسه مع الطبقات الشعبية ليفهم طبيعة الحكام، ومع الطبقة الحاكمة ليفهم طبيعة الشعب. وهذا يعنى أن الحكام عاجزون عن الحكم على أنفسهم، أى عاجزون عن اتخاذ القرار المناسب والسليم، وأن الشعب فى الوقت نفسه عاجز عن الحكم على نفسه. ولذلك فإن علم السياسة أو علم الدولة لا يكون موضوعيا إلا إذا نهض على رأى الشعوب فى حكامها وعلى رأى الحكام فى شعوبهم، إذ أن العلاقة بين الطرفين علاقة عضوية تنهض على عنصرى التأثير والتأثر المتبادلين بصفة متجددة ومستمرة، تماما مثل العلاقة بين المطبخ وقاعة الطعام.

من هذه الأصول أو القوانين أيضا يفتح ماكيافيللى الأذهان على قواعد اللعبة السياسية التى لا يتجاهلها أو لا يدركها سوى المكابر أو الخبيث أو الجاهل أو الغبى أو المتعجرف. فتح الأذهان عليها ففتحوا عليه أبواب الجحيم، ومع ذلك لم يهتم ولم يخف ولم يتراجع لأنه كان يدرك تماما أنها الحقائق التى ستثبت نفسها فى النهاية سواء شاءوا أم أبوا، وسيجدون أنفسهم مضطرين للتعامل معها

بطريقة أو بأخرى. يقول على سبيل المثال إن الضعفاء هم الذين ينضمون إلى الفاتح القوى الذى إذا أراد أن يديم سيطرته على دولته، فعليه أن يحابى هؤلاء الضعفاء اللائذين به خوفا منه أو طلبا لحماياتهم من أعدائهم أو من سادتهم القدامى، ونفاقا ومداهنة من أجل المنافع، ولكن عليه الا يسمح لأحدهم بأن يشتد عوده حتى لا يصبح خطرا عليه سواء فى القوة العسكرية أو فى السلطة. إنه من خلال قوته الخاصة ومعونة من هم أقل منه قوة يستطيع هذا الأمير الفاتح أن يديم سيطرته على ما فتحه. كذلك عليه ألا يتخذ لنفسه شركاء أو حلفاء أقوياء ليثبت قدمه أو ليوسع ملكا، فهؤلاء الشركاء أو الحلفاء الأقوياء كفيلون بأن ينتزعوا منه كل شيء.

ولا يريد ماكيافيللى أن يبث اليأس والإحباط فى نفوس قرائه، بل يهدف إلى تسليحهم بالحقيقة حتى يواجهوها بالأسلحة المناسبة لها، سواء أكانت أسلحة فكرية وتنظيمية وعلمية أم أسلحة مادية وعسكرية واقتصادية. فالحقيقة تؤكد أن الثورات تبدأ دائما بالآمال الوردية التى توحى بالقدرة على تحقيق المستحيل. لكن علم السياسة أثبت أن الشعوب تثور لاستبدال حاكم بحاكم، وطنيا كان أم أجنبيا، إذا عانت من المظالم وتوهمت أن حالها سوف تتحسن فى ظل الأمير الجديد، لكنها لا تلبث أن تفيق من وهمها حين تدرك أنها تسير من سيئ إلى أسوأ فتثور من جديد لطرد الحاكم الجديد وهكذا. أى أن الثورة إذا لم تكن مسلحة بالمنهج العلمى والرؤية الثاقبة والاستراتيجية ذات النفس الطويل والقدرة على تسخير كل الإمكانات والطاقات لصالح أهدافها العاجلة والآجلة، فإنها سرعان ما تدخل فى دوائر مفرغة وطرق مسدودة ومتاهات جانبية قد تؤدى إلى نتائج وتداعيات عكس المرجوة تماما. أى يجب وضع كل الاحتمالات والتوقعات السلبية قبل الإيجابية فى الحسبان.

وإذا كانت القسوة ضرورة فى بعض الأحيان بحيث لا يجد الحاكم مناصا من اللجوء إليها، فهى سلاح ذو حدين ويجب استخدامها بحرص وحساب دقيق.

ومن الأفضل أن تكون جرعتها سريعة وحاسمة حتى تؤتى ثمارها فى أسرع وقت، ويقل الإحساس بها على المدى الطويل وبالتالى تقل آثارها السلبية بقدر الإمكان. فأعمال القسوة التى تستعمل بطريقة عاجلة كضرورة لتأمين النفس ثم لا يستمر الأمير فيها بل يحولها بقدر إمكانه إلى أعظم المنافع لشعبه، يصفها ماكيافيللى بحسن استعمال القسوة وتوظيفها فى المكان والزمان المناسبين. أما أعمال القسوة التى قد تبدأ قليلة لكنها تزداد مع الأيام ولا تتضاءل فهى إساءة لاستعمال القوة ولابد أن تؤدى فى النهاية إلى نتائج وبيلة. ويخرج ماكيافيللى من هذه القاعدة بأن الحكام الذين يتبعون الطريق الأول يمكن أن يجدوا فى سبيل الله وطريق البشر صلاحا لحالهم، أما الآخرون فيستحيل عليهم أن يحافظوا على كيانهم. كذلك يجب أن تمنح المنافع مقسطة، قليلا قليلا، حتى يحس الناس بمذاقها إحساسا أكبر. إن من يسيل لعابه للروائح المغرية والأبخرة المتصاعدة من نوافذ المطبخ وأبوابه، لا ينبغى أن ينهال على أطايب الطعام حتى يصاب بالتخمة، وبمرور الأيام يصبح الطعام فى نظره تحصيل حاصل أو واجبا عليه أن يؤديه، بل يجب الحرص على استمرار تشويقه بتقسيط الأنواع والدرجات، بل حرمانه منها لوقت محدود ومحسوب، حتى يسيل لعابه مرة أخرى ويبيت يحلم بالمأدبة الشهية، مما يذكرنا بالمثل العربى القائل: جوّع كلبك يتبعك.

ويضيق بنا المقام لاستخراج كل الأصول والقوانين والأسرار التى استخرجها ماكيافيللى من غياهب المطبخ السياسى. وقد يقول قائل وهو يتساءل فى بعض الاستنكار: وأى جديد فى هذا؟ إن أى رجل عملى يستطيع أن يدلك على هذه الأصول دون عناء كبير. فقد استخدمها الساسة منذ أن وعى الإنسان أصول الحكم والسياسة والدولة، فقد كان بدهية لا تحتاج إلى عبقرية لاكتشافها. لكن المشكلة الحقيقية لا تكمن فى مجرد اكتشاف هذه الأصول وإنما فى الاعتراف بها وتقنينها وبلورتها وقبولها أساسا للحياة الفردية والجماعية، ثم فى إشهارها على الملأ دون حرج أو حساسية كما فعل ماكيافيللى. إن أى علم هو اكتشاف لقوانين الكون والحياة والنفس البشرية التى يجب أن تحلل وتدرس لتحديد وسائل

التعامل معها بلا حرج أو حساسية. وطالما أنه لاحياء فى العلم، فقد أمسك ماكيافيللى بضوء فاحص كشف به كل الدهاليز المعتمة والغامضة والمريبة التى يربض فيها طهاة المطبخ السياسى، وعرى كل خططهم ومؤامراتهم والوسائل التى يوظفونها بحنكة أو بخبث وصولا إلى أهدافهم. وهذه التعرية كانت القاعدة التى بنى عليها فلسفته فى فن الحكم وعلم الاجتماع وعلم السياسة، وهى التى فتحت عليه أبواب الجحيم، لكنه خاض وسط النيران التى جعلت اسمه يتوهج عبر التاريخ وفى عيون كل من عملوا بالسياسة.

الفصل الخامس

ماكيافيللى: كاتباً مسرحياً وروائياً

يتفق كثير من الكتاب والنقاد على أن السياسة التى جنت على الحياة الشخصية والسعادة الأسرية لماكيافيللى، قد جنت أيضا على موهبته ككاتب مسرحى وروائى ضليع. فقد استهلكت معظم وقته وجهده وطاقته وفكره فلم يكتب سوى مسرحية كوميدية اسمها «ماندراجولا»، وأخرى اسمها «كليزيا»، ورواية اسمها «بيلفاجور» وأخرى اسمها «سيرة كاسترو تشيو كاستراكانى» لم يتمها. ومع ذلك فهى تكشف عن موهبة أصيلة وتمكن من أصول التأليف المسرحى والروائى، وخاصة أن خبرته العميقة والمتعددة الجوانب بأمور السياسة والاجتماع وأحوال البشر قد أنضجت المضامين الفكرية التى احتوت عليها هذه الأعمال المسرحية والروائية التى يمكن اعتبارها جزءا عضويا من إنجازه الفكرى ككل.

فى مسرحه الكوميدى كان يملك القدرة على تسلية الجمهور وجذبه إلى أحداثه وشخصياته، ومن خلال هذه التسلية والجاذبية كانت أفكاره الزاخرة بالسخرية والتهكم من الأوضاع السياسية المريبة، والمواقف الاجتماعية المقلوبة، تغرى المتفرج باعتناقها، مما جعل كل كتاباته وأعماله تشكل ما يشبه المنظومة المتكاملة المتناغمة. حتى الشعر له محاولات فيه لكنها لا ترقى إلى مستوى مسرحه الكوميدى، خاصة مسرحية «ماندراجولا» التى تعد من أعظم من أفضل مسرحيات كارلو جولدونى رائد المسرحية الكوميدية الإيطالية التى عرفت باسم «الكوميديا ديللارتى»، كما أنها متفجرة بعناصر التهكم والسخرية والدعابة التى

اشتهر بها موليير. كان ماكيافيللى واعيا بكيفية التأثير فى جمهوره وتغيير فكره من خلال امتاعه بنظرته الثاقبة ومضمونه المثير.

وكان أستاذ متمكناً من رسم شخصياته بأسلوب يجمع بين المصداقية الواقعية والسخرية الكاريكاتيرية. وهذا التمكن كان نتيجة طبيعية لدرايته العميقة بأحوال النفس البشرية وكهوفها المظلمة. وهذه الشخصيات لم تتحرك فى المسرحية كمجرد أنماط اجتماعية وإنسانية، بل كانت جزءا عضويا من حبكة درامية محكمة، وكوميديا نابعة من المفارقات الإنسانية والمواقف المتتابعة التى لا تفقد كثيرا من قيمتها عندما تترجم لأنها لا تنهض على مجرد الدلالات اللفظية المرتبطة بلغة معينة. فالعاشق يبدو مختلفا عن أنماط العشاق التى كانت سائدة فى مسرحيات ذلك العصر، فهو ليس رقيقا ولا مهذبا ولا كريماً، وكذلك مستشاره أو ناصحه الذى كان طفيلياً بمعنى الكلمة، بالإضافة إلى شخصية المنافق التى جسد فيها ماكيافيللى كل مظاهر النفاق التى عراها فى كتابه «الأمير». أما شخصية نيكياس العجوز فتعتبر من أروع إبداعات خيال ماكيافيللى، التى قل أن نجد لها مثيلا أو قرينا فى مسرحيات أخرى. كان المؤلف بالمرصاد لكل مظاهر التفاهة والسطحية والخواء والادعاء والزيف. ولم تكن حماقة نيكياس من النوع الذى يثير الضحك والاستخفاف به دون أن يؤثر فيمن حوله، بل كانت حماقته إيجابية وفعالة فى تطوير أحداث المسرحية، برغم أن حياته زيف فى زيف، وتفاهة فى تفاهة، وسطحية فى سطحية، لكن تأثيره كان يصل إلى العمق. وهذه مفارقة ساخرة يود ماكيافيللى أن يقول من خلالها إن التافهين والمزيفين والسطحيين والمدعين يمكن أن يؤثروا فى الحياة فى حين يقتصر دور المثقفين والمفكرين على دور المتفرج السلبى. إن نيكياس أبله من النوع الذى لا يثير الشفقة أو الخوف بل السخرية والاستهزاء. وتبلغ السخرية ذروتها عندما يحصل هذا التافه الأجوف على درجة الدكتوراه فى الفلسفة، ويرتدى عباءة أستاذ الجامعة المطرزة بالفراء الفاخر، ويتحرك بمنتهى الكبرياء والفخر بعبقريته الفذة، ولا يتكلم سوى لغة

توسكانيا القديمة التى تدل على عمق علمه فى حين أن كل الكتاب والمفكرين صرفوا النظر عنها ؛ لركاكتها الصوتية المثيرة للتهكم.

أما الشعر المسرحى الذى كتب به ماكيافيللى مسرحية «ماندراجولا» فيعتبر من أفضل ما أنجبته قريحته من شعر. فهو شعر درامى بمعنى الكلمة، يبلور المواقف، ويجسد الأحداث، ويطور الشخصيات دون افتعال أو اقحام من المؤلف، مما جعلها طافحة بالحيوية ومتدفقة بالحياة. ولذلك كان نجاحها مدويا عندما عرضت فى فلورنسا. وكان البابا ليو العاشر من أشد المعجبين بالمسرحية لدرجة أنه أمر بعرضها فى روما حتى تتسنى له مشاهدتها بعد أن سمع عنها الكثير.

أما مسرحيته الأخرى «كليزيا» فلم تكن تملك أصالة ورصانة «ماندراجولا» إذ كانت مجرد محاكاة لمسرحية «كاسينا» للكاتب المسرحى الرومانى الكوميدى بلاوتس، والتى كانت بدورها محاكاة لمسرحية مفقودة للكاتب الإغريقى ديفيلاس. وقد كان بلاوتس من أحسن كتاب المسرح اللاتينى (الرومانى) بلا نزاع، وكانت مسرحية «كاسينا» واحدة من أفضل مسرحياته، لكنها لم تكن تحتوى على مادة خصبة تسهل للمقلد أو المقتبس مهمته. فالقصة قديمة وغريبة لا تناسب ذوق أهالى فلورنسا فى زمن ماكيافيللى، ومحاولة تحديثها تفقدها الكثير من دلالاتها ومعانيها. فالعاشق - بطل المسرحية - يظل يمارس حياته فى الريف فى حين لا تبارح البطلة غرفتها طوال المسرحية، وقد تركا مصيرهما ليقرره أب أحمق، وأم ماكرة خبيثة، وخادمان أفاقان نصابان. ومع ذلك تجلت موهبة ماكيافيللى فى إضفاء إحكامه المنطقى وذوقه الرفيع على بنائها. فقد نقل أحداث الحبكة إلى مجتمع آخر مختلف، وشحنها بإسقاطات معاصرة للتخفيف من دلالاتها القديمة بقدر الإمكان، ومواقف ساخرة وضاحكة من العاشق الطاعن فى السن الذى يشتعل قلبه بلواعج الهوى. وتتألق بعض فقرات المسرحية لدرجة أنها تبز مسرحية بلاوتس فى أصلها اللاتينى.

كما كتب ماكيافيللى مسرحيتين كوميديتين بدون عنوان، إحداهما نثرا والأخرى شعرا. الأولى قصيرة للغاية وزاخرة بالحيوية، لكن قيمتها الفنيّة أمر مشكوك فيه، والأخيرة تبدو وكأنها نسخة باهتة لمسرحية أخرى، ولا تليق بالسمعة الفكرية والفلسفية الرفيعة التى يتمتع بها صاحبها. وكانت قد طبعت لأول مرة فى عام ١٧٩٦م، من مخطوطة تم اكتشافها فى مكتبة ستروتزى الشهيرة. وكان الاستدلال الوحيد على أنها من تأليف ماكيافيللى، يكمن فى مقارنة خط اليد الذى كتبت به بكتابات ماكيافيللى الخطية الأخرى. وهناك من يشك أنها من تأليف ماكيافيللى أصلا، لأنها تحتوى على وصف للطاعون الذى اجتاح فلورنسا عام ١٥٢٧م وهو نفس عام وفاة ماكيافيللى، ومع ذلك أضيفت إلى قائمة أعمال ماكيافيللى، لكنها لا تضيف أية قيمة فكرية أو فنية حقيقية إلى إنجازاته. والحوارات والتأملات والمونولوجات والمفارقات والنكات والبكائيات كانت تتراوح بين الافتعال والتصنع والسخافة والابتذال والفجاجة، مما يرجح كفة الشك فى أنها كانت من تأليف ماكيافيللى ذى الفكر الثاقب والأسلوب الرصين والحس الأدبى الراقى.

أما ماكيافيللى ككاتب روائى - فى زمن لم تكن تقاليد الفن الروائى قد تبلورت وترسخت بعد - فقد أثبت جدارته وريادته عندما كتب رواية «بلفاجور» الاجتماعية الساخرة من أنماط النساء والزوجات والزيجات التى تتحول إلى سجون متناثرة فى أنحاء البلاد، فى حين يخدع الجميع أنفسهم بأنهم يعيشون حياة الحرية والانطلاق. وأيضا روايته «سيرة كاستروتشيو كاستراكانى» التاريخية التى يتخذ فيها من أحداث التاريخ وشخصياته مادة درامية مثيرة، لكنه للأسف لم يكملها، وخاصة أن أسلوبه الأدبى الجميل والرصين الذى تجلى فى كتبه ودراساته مثل «الأمير» و«المطارحات» و«فن الحرب» و«تاريخ فلورنسا» ومراسلاته مع مفكرى عصره وقادته، قد بلغ قمته فى هاتين الروايتين اللتين لم يكتب غيرهما، مما يدل على أن هموم السياسة قد حرمت الأدب المسرحى والروائى من أديب كان يمكن أن يضيف إليهما الكثير.

بالنسبة لرواية «بلفاجور»، يقال إن ماكيافيللى استمد مادتها من حياته الزوجية التى اعتبرها فاشلة بكل المقاييس، لأن رجل السياسة الذى يخوض أهوالها ويتعرض لمآسيها كالاعتقال والسجن والتعذيب وربما القتل لا يصلح أن يكون زوجا مثاليا. ولذلك حاول ماكيافيللى أن يعوض زوجته عن حياتها التعسة معه، بالحرص على مشاعرها واحترام كيانها، بحيث ظلت علاقته الزوجية مع زوجته ماريا كورسينى على مدى ثلاثة وعشرين عاما على أفضل ما يكون. وكما تبين رسائله فإنه كان فى كل مرة يسافر فيها بعيدا، يتحرق للعودة سريعا إلى أسرته التى كانت تنتظره أيضا بلهفة كبيرة. ومع ذلك فإن روحه الساخرة دوما جعلته ينظر إلى وفاء زوجته وإخلاصها على أنهما عذاب متجدد لها دون ذنب ارتكبته سوى أنها تزوجته، لأن المفروض فى الزواج أن يصبح مصدر سعادة وسكينة للزوجين.

من هذا المفهوم الشخصى انطلق ماكيافيللى إلى المفهوم العام للزواج بأنماطه السلبية المتعددة التى لمسها فى مجتمعه، وجعل منها مادة مشوقة لرواية «بلفاجور» ذات الأحداث المنسابة فى نعومة تتسلل برفق إلى ذهن القارئ ووجدانه، وإن كان فى بعض المواقف قد لجأ إلى المبالغة فى السخرية التى أفقدت هذه المواقف مصداقيتها وأضاعت تأثيرها المنشود. ومن الواضح أن الكاتب المسرحى بن جونسون المعاصر لشكسبير قد استلهم بعض مواقف هذه الرواية، ومواقف أخرى من قصص «الديكاميرون» للأديب الإيطالى بوكاتشيو فى بناء حبكة مسرحيته «الشيطان جحشاً»، التى لا تعتبر من قمم أعماله المسرحية، لكن حبكتها تدل على عبقرية مؤلفها، خاصة استلهامه لحبكة ماكيافيللى الساخرة التى يستسلم فيها الشيطان أمام حيل فلاح بسيط، فيفضل العودة إلى الجحيم بعد أن أعيته الحيل.

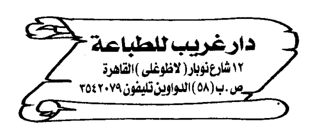
أما رواية «سيرة كاستروتشيو كاستراكانى» التاريخية، فتعد رواية رائدة فى مجالها، برغم أنها لم تحظ بالاهتمام الجماهيرى الجديرة به. فبطل هذه الرواية هو أمير لوكا الشهير، وأحد القادة الإيطاليين المرموقين، ونموذج فريد

كحاكم يشع بمهابة غير مرئية لكنها محسوسة، وبقوة لا تصدر عن بنود القانون واللوائح التى يطبقها، بل تصدر عن الرأى العام الذى يحيطه بالحب والحماس، وعن صفاته الشخصية التى تجعله مركز جذب لكل من حوله. إنها نفس الخصائص والقدرات والمواهب التى افترضها ماكيافيللى فى شخصية الأمير كما يجب أن تكون فى كتابه الشهير لكنه يعالجها الآن بأسلوب روائى فنى، ويضيف إلى الشخصية التاريخية وأحداثها الكثير من خياله الخلاق، مما يدل على أنه لم يستطع أن يقاوم ميله الأدبى الذى أعلن عن نفسه فى أعمال مسرحية وروائية صريحة. وكانت الحبكة التى تدور حولها أحداث هذه الرواية، قد نبعت من موقف خصوم أمير لوكا الذين حاولوا تصوير شعبيته الجارفة على أنها طغيان خبيث يتلاعب بعقل الشعب ويخدره لأهدافه غير الشعبية، مثله فى ذلك مثل أساليب الطغيان التى كانت تحكم إمارتى لومبارديا وتوسكانيا فى ذلك الوقت على سبيل المثال. وقد تجلت موضوعية ماكيافيللى فى أنه تجنب الانحياز سواء إلى الأمير أو إلى خصومه. بل إنه جسد خطورة اعتماد الأمير على شعبيته الجارفة، وجاذبيته الشخصية، وإهماله لتطبيق القوانين التى يجب أن يلتزم بها، لأن عوامل الغرور والعنجهية والنرجسية والأنانية والذات المتضخمة يمكن أن تجعل منه طاغية بمعنى الكلمة. ولذلك كانت الديمقراطية الأثينية بالمرصاد لأمثال هؤلاء الحكام من ذوى الكاريزما التى تجب كل المعايير والضوابط المطلوبة.

هكذا كان ماكيافيللى مفكرا وكاتبا وأديبا موسوعيا، امتلك ناصية الفكر الثاقب والأسلوب الناصع اللذين لم تؤثر فيهما الحروب والمعارك والصراعات التى خاضها مع خصومه الذين كانوا له دائما بالمرصاد، وبذلوا أقصى ما فى وسعهم لتشويه صورته وسمعته. لم يهتز ولم يتراجع، ولم يفقد الاتجاه، وظل شامخا لا يحنى قامته للعواصف والأنواء والأعاصير التى حاولت اجتياحه، فسجّل التاريخ صورته المبهرة والشامخة وأثره العميق فى كل من اشتغلوا بالسياسة تنظيرا وتطبيقا على مر الأجيال والعصور التى تتابعت بعده وحتى الآن. وهكذا كانت حياته وكفاحه وريادته وعبقريته دليلا عمليا ملموسا على أنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح.

رقم الإيداع ٩٧/١٥٤ ٢١

I. S. B. N 977-215-264-9


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩